طه حسين

إعداد

صلاح عبد الحميد

مؤسسة دار الفرسان

للنشر والتوزيع

51 ش إبراهيم خليل – المطرية

اسم الكتاب :طه حسين

(شخصيات مصرية)

المؤلـــــف : صلاح عبد الحميد

الناشـــــر : مؤسسة دار الفرسان

تصميم الغلاف: فرى برنت- 0104470645

رقم الإيداع : 3235 / 2015

طبعة ثانية : 2015

فهرسة أثناء النشر

صلاح عبد الحميد

طه حسين(شخصيات مصرية) / صلاح عبد الحميد – القاهرة .- ط1

مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع

80 ص ؛ 24 سم

تدمك : -8-53-6169-977

1 –الرجال – تراجم

2- النساء - تراجم

أ. العنوان 920و70

آية قرآنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا)

صدق الله العظيم

طه 114

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الماضي لا يماثل المستقبل ، الماضي شيء ، والمستقبل شيء آخر ،

الماضي انتهى ، والمستقبل جاهز للتفصيل حسب المقاس الذي ترغبه "

أنتوني روبنز

مصر بلدنا الحبيب ستظل فى قلب شعبك مهما كانت الظروف , سنظل نكافح من أجل أن نرفع أسمك علياً فى الأفاق , مر عليك شخصيات كثيرة أثبتوا لكي يا حبيبتي كم ضحوا من أجلك ، كم كانوا يزرعون الخير والحب والخير والنماء .

على ضفافك تعلمنا الكثير رأينا كم أنتي عظيمة بأرضك وخصوبتك مهما أختلف الزمان ، وجاء الوقت اليوم لنتسلم الراية من شخصيات أثرت وعمروا لنحافظ عليكى ونكمل المسيرة من أجل شئ واحد ألا و هو أنتي

الشخصيات المصرية والنوابغ التى أخرجتها مصر .. أكثر من أن تحصي .. وأكبر من أن تقدرها الرواية .. فعلى مدى العصور السالفة .. نبغ بمصر عشرات العلماء والأدباء والسياسيين والمفكرين والكتاب .. حتى فى مجال الأمن .. خرجت منها أساطير حفرت سجلا من ذهب فى ميادين القتال .. فى الحروب الساخنة .. والباردة على حد سواء ..

وان كنت أكتب عن بعض هذه الشخصيات ، فليس هذا حصرا لهم .. فهم أكثر من ذلك .. وليس هذا برد لما بسطوه من أعمالهم .. فهم أكبر من هذا أيضا .. هم بعض الشخصيات ذات الأثر غير العادي على مصر والبلاد العربية بل والعالم أجمعه .. وفيما أعتزمه من طرح لهذه الشخصيات الشهيرة التى يدرك مجال نبوغها القلائل، تلك الشخصيات التى اكتسبت الشهرة ..وأتمنى أن تغفروا مسبقا أي تقصير تلمحونه فى هذه الدراسة التى أكتبها لكم كخاطرة وحديث سامر فى ليالي الأدب ..

المؤلف

طه حسين .. النشأة والتعليم

طه حسين (15نوفمبر 1889 – 1973) أديب وناقد مصري كبير، لُقّب بعميد الأدب العربي .غير الرواية العربية، مبدع السيرة الذاتية في كتابه" الأيام "الذي نشر عام .1929 يعتبر من أبرز الشخصيات في الحركة العربية الأدبية الحديثة ومن أبرز دعاة التنوير في العالم الإسلامي.

مولده ونشأته

في الخامس عشر من شهر نوفمبر في عام 1889 ولد طه, سابع أولاد أبيه حسين الثلاثة عشر ولدا, في قرية الكيلو قريبا من مغاغة إحدى مدن محافظة المنيا في الصعيد الأوسط المصري.و ما مر على عيني الطفل أربعة من الأعوام حتى أصيبتا بالرمد ما أطفأ النور فيهما إلى الأبد, لكن عوضه الله بصيرة نافذة، وذهنا صافيا, وفؤاد ذكيا، وعقلا متفتحا صغر بإزائه فقد البصر, والحرمان بنعمة التلذذ بجمال ما في الوجود وكان والده حسين علي موظفًا صغيرا رقيق الحال في شركة السكر،

أدخله أبوه كتاب القرية للشيخ محمد جاد الرب, لتعلم العربية والحساب وتلاوة القرآن الكريم وحفظه، فحفظه في مدة قصيرة أذهلت أستاذه وأترابه ووالده الذي كان يصحبه أحيانا لحضور حلقات الذكر, والاستماع عشاء إلى سيرة عنترة ,وأبي زيد الهلالي.

تعليمه

سنة 1902 دخل طه الأزهر للدراسة الدينية, للاستزادة من علوم العربية , فحصل فيه ما تيسر من الثقافة، ونال شهادته. التي تخوله التخصص في الجامعة , لكنه ضاق ذرعا فيه, فكانت الأعوام الأربعة التي قضاها فيه, وهذا ما ذكره هو نفسه، وكأنها أربعون عاما وذلك بالنظر إلى رتابة الدراسة, وعقم المنهج ,وعدم تطور الأساتذة والشيوخ وطرق وأساليب التدريس.

ولما فتحت الجامعة المصرية أبوابها سنة 1908 كان طه حسين أول المنتسبين إليها، فدرس العلوم العصرية ، والحضارة الإسلامية, والتاريخ والجغرافيا, وعددا من اللغات الشرقية كالحبشية والعبرية والسريانية

وإن ظل يتردد خلال تلك الحقبة على حضور دروس الأزهر والمشاركة في ندواته اللغوية والدينية والإسلامية.دأب على هذا العمل حتى سنة 1914, وهي السنة التي نال فيها شهادة الدكتوراة وموضوع الأطروحة هو:"ذكرى أبي العلاء" ما أثار ضجة في الأوساط الدينية المتزمتة, وفي ندوة البرلمان المصري إذ اتهمه أحد أعضاء البرلمان بالمروق والزندقة والخروج على مبادئ الدين الحنيف.

وفي العام نفسه, اي في عام 1914 أوفدته الجامعة المصرية إلى مونبيلية بفرنسا، لمتابعة التخصص والاستزادة من فروع المعرفة والعلوم العصرية، فدرس في جامعتها الفرنسية وآدابها ,وعلم النفس والتاريخ الحديث.بقي هناك حتى سنة 1915, سنة عودته إلى مصر, فأقام فيها حوالي ثلاثة أشهر أثار خلالها معارك وخصومات متعددة, محورها الكبير بين تدريس الأزهر وتدريس الجامعات الغربية مما دفع بالمسئولين إلى اتخاذ قرار بحرمانه من المنحة المعطاة له لتغطية نفقات دراسته في الخارج, لكن تدخل السلطان حسين كامل حال دون تطبيق هذا القرار، فعاد إلى فرنسا من جديد ,لمتابعة التحصيل العلمي، ولكن في العاصمة باريس,

فدرس في جامعتها مختلف الاتجاهات العلمية في علم الاجتماع والتاريخ اليوناني والروماني والتاريخ الحديث وأعد خلالها أطروحة الدكتوراة الثانية وعنوانها: (الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون).

كان ذلك سنة 1918 إضافة إلى إنجازه دبلوم الدراسات العليا في القانون الروماني, والنجاح فيه بدرجة اللإمتياز، وفي غضون تلك الأعوام كان تزوج من سوزان بريسو الفرنسية السويسرية التي ساعدته على الاضطلاع أكثر فأكثر بالفرنسية واللاتينية, فتمكن من الثقافة الغربية إلى حد بعيد.

كان لهذه السيدة عظيم الأثر في حياته فقامت له بدور القارئ فقرأت عليه الكثير من المراجع، وأمدته بالكتب التي تم كتابتها بطريقة بريل حتى تساعده على القراءة بنفسه، كما كانت الزوجة والصديق الذي دفعه للتقدم دائماً وقد أحبها طه حسين حباً جماً، ومما قاله فيها أنه "منذ أن سمع صوتها لم يعرف قلبه الألم"، وكان لطه حسين اثنان من الأبناء هما أمينة ومؤنس.

عودته لمصر

لما عاد إلى مصر سنة 1919 عين طه حسين أستاذا للتاريخ اليوناني والروماني في الجامعة المصرية، وكانت جامعة أهلية، فلما ألحقت بالدولة سنة 1925 عينته وزارة المعارف أستاذاً فيها للأدب العربي، فعميداً لكلية الآداب في الجامعة نفسها، وذلك سنة 1928، لكنه لم يلبث في العمادة سوى يوم واحد؛ إذ قدم استقالته من هذا المنصب تحت تأثير الضغط المعنوي والأدبي الذي مارسه عليه الوفديون، خصوم الأحرار الدستوريين الذي كان منهم طه حسين.

وفي سنة 1930 أعيد طه حسين إلى عمادة الآداب, لكن, وبسبب منح الجامعة الدكتوراة الفخرية لعدد من الشخصيات السياسية المرموقة مثل عبد العزيز فهمي ,وتوفيق رفعت ,وعلي ماهر باشا ,ورفض طه حسين لهذا العمل, أصدر وزير المعارف مرسوما يقضي بنقله إلى وزارة المعارف، لكن رفض العميد تسلم منصبه الجديد اضطر الحكومة إلى إحالته إلى التقاعد سنة 1932.

على أثر طه حسين إلى التقاعد انصرف إلى العمل الصحفي فأشرف على تحرير (كوكب الشرق) التي كان يصدرها حافظ عوض، وما لبث أن استقال من عمله بسبب خلاف بينه وبين صاحب الصحيفة، فاشترى امتياز (جريدة الوادي) وراح يشرف على تحريرها, لكن هذا العمل لم يعجبه فترك العمل الصحفي إلى حين, كان هذا عام 1934.

وفي العام نفسه أي عام 1934 أعيد طه حسين إلى الجامعة المصرية بصفة أستاذا للأدب، ثم بصفة عميد لكلية الآداب ابتداء من سنة 1936. وبسبب خلافه مع حكومة محمد محمود, استقال من العمادة لينصرف إلى التدريس في الكلية نفسها حتى سنة 1942 ، سنة تعيينه مديراً لجامعة الإسكندرية، إضافة إلى عمله الآخر كمستشار فني لوزارة المعارف, ومراقب للثقافة في الوزارة عينها, وفي عام 1944 ترك الجامعة بعد أن احيل إلى التقاعد.

وفي سنة 1950، وكان الحكم بيد حزب الوفد, صدر مرسوم تعيينه وزيراً للمعارف, وبقي في هذا المنصب حتى سنة 1952، تاريخ إقامة الحكومة الوفدية، بعد أن منح لقب الباشوية سنة 1951، وبعد أن وجه كل عنايته لجامعة الإسكندرية، وعمل رئيساً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة, وعضواً في العديد من المجامع الدولية, وعضواً في المجلس العلى للفنون والآداب.

وفي سنة 1959 عاد طه حسين إلى الجامعة بصفة أستاذ غير متفرغ, كما عاد إلى الصحافة, فتسلم رئاسة تحرير (الجمهورية) إلى حين.

أساتذته

أول أستاذ لطه حسين, كان الشيخ محمد جاد الرب, الذي علمه مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وتلاوة القرآن الكريم في الكتاب الذي كان يديره بمغاغة في عزبة الكليو.

في الأزهر تلقى العلم على عدد من الأساتذة والمشايخ أبرزهم حسين المرصفي ,والشيخ مصطفى المراغي ,والشيخ محمد بخيت ,والشيخ عطا ,والشيخ محمد عبده ,وقد أعجب بادئ الأمر كثيراً بآراء هذا الأخير واتخذه مثالاً في الثورة على القديم والتحرر من التقاليد.

في الجامعة المصرية تتلمذ على يد كل من أحمد زكي في دروس الحضارة الإسلامية ,أحمد كمال باشا ,في الحضارة المصرية القديمة, والمستشرق جويدي في التاريخ والجغرافيا. أما في الفلك فتتلمذ على كرنك نللينو ,وفي اللغات السامية القديمة على المستشرق ليتمان، وفي الفلسفة الإسلامية على سانتلانا ,وفي تاريخ الحضارة المشرقية القديمة على ميلوني، والفلسفة على ماسينيون ,والأدب الفرنسي على كليمانت.

أما في جامعة باريس فدرس التاريخ اليوناني على غلوتسس ,والتاريخ الروماني على بلوك ,والتاريخ الحديث على سيغنوبوس ,وعلم الاجتماع على إميل دوركهايم، وقد أشرف هذا ومعه بوغليه على أطروحته عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية, بمشاركة من بلوك وكازانوفا.

مناصب وجوائز

اضطلع طه حسين خلال تلك الحقبة, وفي السنوات التي أعقبتها بمسؤوليات مختلفة, وحاز مناصب وجوائز شتى, منها تمثيلية مصر في مؤتمر الحضارة المسيحية الإسلامية في مدينة فلورنسا بإيطاليا, سنة 1960، وانتخابه عضوا في المجلس الهندي المصري الثقافي, والأشراف على معهد الدراسات العربية العليا، واختياره عضوا محكما في الهيئة الأدبية الطليانية والسويسرية, وهي هيئة عالمية على غرار الهيئة السويدية التي تمنح جائزة بوزان. ولقد رشحته الحكومة المصرية لنيل جائزة نوبل، وفي سنة 1964 منحته جامعة الجزائر الدكتوراة الفخرية, ومثلها فعلت جامعة بالرمو بصقلية الإيطالية, سنة 1965. وفي السنة نفسها ظفر طه حسين بقلادة النيل, إضافة إلى رئاسة مجمع اللغة العربية, وفي عام 1968 منحته جامعة مدريد شهادة الدكتوراة الفخرية، وفي سنة 1971 رأس مجلس إتحاد المجامع اللغوية في العالم العربي, ورشح من جديد لنيل جائزة نوبل، وأقامت منظمة اليونسكو الدولية في اورغواي حفلاً تكريمياً أدبياً قل نظيره.و أيضا كان وزيرا للتربية والتعليم في مصر.

كتاب الأيام

الأيام كتاب عن أيام أتت وولت على طه حسين يسردها في هذا الكتاب ليقص بها قصة حياته. طفولته في قريته وشقاوته مع شيخه ثم الانتقال إلى أعمدة الأزهر حيث كان يتجلى كل أمل أبيه أن يراه عالما يعتكف على إحدى تلك الأعمدة يدرس فيها طلابه. ذهب طه حسين إلى الأزهر وفي مخيلته صورة جميلة عن الأزهر لم تزل حتى أقتحم القاهرة وعاش وتنقل بين صحون وأعمدة الأزهر وعاش فيها ما عاش ورأى فيها ما رأى. لا أريد أن أحرق لكم ورقة هذا الكتاب الممتع. سيرة ذاتية جميلة حيادية وموضوعية رأيت فيها من التواضع ومن الشجاعة الاعتراف بالأخطاء والصبر على مصائب الحياة دعتني إلى أن أسأل نفسي هل كنت لأكافح وأجاهد هذه الحياة وأرضي طموحي إذا فقدت بصري في يوم من الأيام؟ هل تظلم الحياة بذهاب نور البصر أم تنطفأ شمعتها بظلمة الإصرار والتحدي؟ إجابة السؤال تجدها في سيرة هذا الإنسان؟

أجزاء الكتاب

يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: يتحدث فيه طه حسين عن طفولته بما تحمل من معاناة، ويحدثنا عن الجهل المطبق على الريف المصري وما فيه من عادات حسنة وسيئة في ذلك الوقت.

الجزء الثاني : يتحدث عن المرحلة التي امتدت بين دخوله الأزهر وتمرده المستمر على مناهج الأزهر وشيوخه ونقده الدائم لهم وحتى التحاقه بالجامعة الأهلية.

الجزء الثالث: يتحدث فيه عن الدراسة في الجامعة الأهلية، ثم سفره إلى فرنسا وحصوله على الليسانس والدكتوراه ودبلوم الدراسات العليا ثم العودة إلى مصر أستاذاً في الجامعة.

وبذلك يكون عميد الأدب العربي قد وضع مثالا للشباب ليهتدوا به حيث هدفه من الكتاب

- **الحنين إلى الطفولة السعيدة**
- **الرغبة في تقديم مثال ليحتذي به الشباب**
- **الرغبة في مراجعه الذات والتاريخ**
- **الرغبة في تحدى الحاضر والانتقام منه**

أيضا من كلمات المؤلف إلى توضح أهدافه النبيلة "أنا أتمنى أن يجد الأصدقاء المكفوفون قي قراءة هذا الحديث تسليه لهم عن أثقال الحياة كما وجدت قي إملاءه، وان يجدوا فيه بعد ذلك تشجيعا لهم على أن يستقبلوا الحياة مبتسمين لها كما تبتسم لهم ولغيرهم من الناس"

أفكار طه حسين

في الشعر الجاهلي

في عام 1926 ألف طه حسين كتابه المثير للجدل" في الشعر الجاهلي " وعمل فيه بمبدأ ديكارت وخلص في استنتاجاته وتحليلاته أن الشعر الجاهلي منحول، وأنه كتب بعد الإسلام ونسب للشعراء الجاهليين. فتصدى له العديد من علماء الفلسفة واللغة ومنهم :مصطفى صادق الرافعي والخضر حسين ومحمد لطفي جمعة والشيخ محمد الخضري وغيرهم. كما قاضى عدد من علماء الأزهر طه حسين إلا أن المحكمة برأته لعدم ثبوت أن رأيه قصد به الإساءة المتعمدة للدين أو للقرآن. فعدل اسم كتابه إلى" في الأدب الجاهلي "وحذف منه المقاطع الأربعة التي أخذت عليه.

دعا طه حسين إلى نهضة أدبية، وعمل على الكتابة بأسلوب سهل واضح مع المحافظة على مفردات اللغة وقواعدها، ولقد أثارت آراءه الكثيرين كما وجهت له العديد من الاتهامات، ولم يبالي طه بهذه الثورة ولا بهذه المعارضات القوية التي تعرض لها ولكن أستمر في دعوته للتجديد والتحديث، فقام بتقديم العديد من الآراء التي تميزت بالجرأة الشديدة والصراحة فقد أخذ على المحيطين به ومن الأسلاف من المفكرين والأدباء طرقهم التقليدية في تدريس الأدب العربي، وضعف مستوى التدريس في المدارس الحكومية، ومدرسة القضاء وغيرها، كما دعا إلى أهمية توضيح النصوص العربية الأدبية للطلاب، هذا بالإضافة لأهمية إعداد المعلمين الذين يقومون بتدريس اللغة العربية، والأدب ليكونا على قدر كبير من التمكن، والثقافة بالإضافة لإتباع المنهج التجديدي، وعدم التمسك بالشكل التقليدي في التدريس.

من المعارضات الهامة التي واجهها طه حسين في حياته تلك التي كانت عندما قام بنشر كتابه "الشعر الجاهلي" فقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة، والكثير من الآراء المعارضة، وهو الأمر الذي توقعه طه حسين، وكان يعلم جيداً ما سوف يحدثه فمما قاله في بداية كتابه:

"هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد لم يألفة الناس عندنا من قبل، وأكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه، وبأن فريقا آخر سيزورون عنه ازورار ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث أو بعبارة أصح أريد أن أقيده فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي في الجامعة.

وليس سرا ما تحدث به إلى أكثر من مائتين، ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ما أعرف أني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي، وهذا الاقتناع القوي هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره في هذه الفصول غير حافل بسخط الساخط ولا مكترث بازورار المزور. وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث وإن أسخط قوما وشق على آخرين فسيرضي هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة، وزخر الأدب الجديد".

طه حسين والفكر اليوناني

من الأفكار المقررة لدى أغلبية المستشرقين أن الثقافة العربية في القديم، كانت واقعة تحت تأثير هيمنة الثقافة اليونانية. ومن هذا المنطلق حاولت الدراسات الاستشراقية أن تُفَتّت ظواهر الفكر العربي إلى جزئيات بكل وسائلها العلمية، وأن تَرِدّها إلى الأصول اليونانية خاصة، وحضارة الآخرين عامة.

وقد تمثّل جيل من اللبراليين المصريين روح الاستشراق، ورأوا أن النهضة العربية الحديثة لا تتحقق إلا بإتباع حضارة الأوربيين، وما الأوربيون إلا حفدة اليونان! وما الحضارة الأوربية الحديثة إلا من ثمرات أولئك الأغارقة اليونانيين!

والحضارة الأوربية الحديثة لا تقنع بأن نعترف بتبعيتنا لها، وبتأثيرها فينا، بل تريد أن نعترف لها أيضا بالتبعية لأرومتها الأولى (اليونان) في الماضي. وهكذا أُثيرتْ مسألة التأثير اليوناني في الثقافة العربية في القديم؛ لتبرير التبعية للثقافة الغربية في العصر الحديث.

وارتبط مشروع د. طه حسين بالثقافة الغربية عامة وبالفكر اليوناني خاصة، وقد أبدى اهتماما خاصا بالتراث اليوناني عامة، وبالتأثير الأرسطي في الفكر العربي على وجه الخصوص.

أولا: لطفي السيد وطه حسين

انجذب د. طه حسين (1889 – 1973م) في بداية حياته الفكرية إلى شخصية أحمد لطفي السيد (1872 – 1963م)، واعتبره أستاذا له وأستاذاً لجيله كله. وقال في "حديث الأربعاء":"وأنت تعلم أن الأستاذ لطفي السيد أستاذٌ لي، كما أنه أستاذ للشباب الناهض المفكر كلِّه".

ولطفي السيد تخرج من مدرسة الحقوق سنة 1894م، والنفس المصرية يطحنها فشل الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر، فانضم إلى ندوة جمال الدين الأفغاني (1838 – 1897م) والشيخ محمد عبده (1849 – 1905م).

وكان لطفي السيد على رأس صفوة المثقفين المصريين بل هو "خلاصة الجيل الماضي بأسره، وتطبيق صحيح لمدرسة الأفغاني وعصره"، على حد قول أحمد حسن الزيات.

كان يستلهم في تفكيره منطلقات الثورة الفرنسية ويستنير بآراء الفكر الليبرالي الأوربي في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، وتميز فكره بالتفتح على الحضارة الغربية.

وآراء لطفي السيد تُشكّل القاعدة الأساسية لحزب الأمة. ومن خلال لطفي السيد تسرب الاتجاه الليبرالي إلى كثير من المثقفين المصريين؛ فكان تمجيد العقلانية والحرية والرغبة في التحرر من الاستبداد والتخلف، والدعوة إلى إقامة أنظمة ديمقراطية، والتمرد على القيم السائدة، والاحتكاك المباشر بالغرب.

ووجد لطفي السيد" أن الحل الأساسي لمشكلة مصر هو الأخذ بجوهر الحضارة الغربية وما فيها من علوم وصناعة وألوان مختلفة من الحضارة المادية، ولا بأس ن يكون هذا سابقا للاستقلال نفسه".

ولما كانت الثقافة اليونانية أصلا للحضارة الغربية الحديثة؛ انصرفت جهود لطفي السيد واهتماماته إلى مسألتين:

أ – تحرير الشخصية المصرية من التقليد والتزمت.

ب – التعريف بفلسفة أرسطو.

وقد أبدى لطفي السيد إعجابا خاصا بفلسفة أرسطو، وأكّد أن الفلسفة العربية ليست شيئا آخر غير فلسفة أرسطو، وبين السبب الذي من أجله ينبغي – في نظره – الرجوع إلى أرسطو، فقال:" وكما أن النهضة الأوربية الحديثة عمدت إلى درس فلسفة أرسطو من نصوصها الأصلية، فكانت مفتاحا للتفكير العصري الذي أخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة؛ فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو – لا سيما أنها أشد المذاهب المألوفة ، والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها – رجاء أن ينتج في النهضة الشرقية مثل ما أنتج في النهضة الغربية"(4).

ولعل أستاذ الجيل كان يبحث عن عقلنة المجتمع المصري، من خلال صاحب المنطق الذي يشكل خلفية جوهرية في الثقافة الغربية. وهكذا ترجم لطفي السيد خمسةَ كتب لأرسطو إلى العربية؛ وهي: كتاب السياسة، كتاب الكون والفساد، كتاب الطبيعة، وكتابان في الأخلاق؛ أشهرهما: الأخلاق إلى نيقوماخوس، الذي ترجمه عن الفرنسية، وظهر سنة 1924م.

وقد اعتبر د. طه حسين ترجمة هذا الكتاب "الترجمة الحدَث" في النهضة العربية، واعتبره شيئا استثنائيا عظيم الخطر، يقول:"لست من الغلو بحيث أقرن الأستاذ لطفي السيد إلى أرسطوطاليس. فأرسطوطاليس هو المعلم الأول للإنسانية الخالدة، ولطفي السيد هو المعلم الأول لعصرنا هذا الذي نحن فيه".

وهكذا انفجرت الهيلينية في الفكر العربي الحديث، وظهر دعاة الإغريقية، وبدأت الأساطير اليونانية تتسرب إلى أدبيات العرب في العصر الحديث.

وهكذا تعلق د. طه حسين بأستاذ الجيل؛ باعتباره رسول للحضارة الغربية في مصر، وناقلا لأرسطو أحد مصادر الفكر اليوناني.

ثانيا: اهتمام د. طه حسين بالفكر اليوناني

دخل د. طه حسين الجامعة المصرية منذ إنشائها سنة 1908م، ونهل المعارف من أفكار المستشرقين، وأعجب غاية الإعجاب بأفكارهم حتى قال:" وكيف تتصور أستاذاً للأدب العربي لا يُلِمُّ ولا يُنتظَرُ أن يُلِمَّ، بما انتهى إليه الفرنجة من النتائج العلمية المختلفة، حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة؟! وإنما يلتَمس العلم الآن عند هؤلاء الناس ولا بد من التماسه عندهم".

وتعود علاقة طه حسين بالفكر اليوناني والروماني إلى دراسته بالسربون حيث كان يحضر تاريخ اليونان على "جلوتن"، وتاريخ الأدب الإغريقي على "كروازيت". وإعجاباً منه بالثقافة اليونانية قرر منذ عودته من باريس والتحاقه بالجامعة سنة 1919م؛ أن يقرِب أصول الحضارة الغربية من الثقافة العربية؛ فبدأ يدرِس التاريخ اليوناني القديم إلى جانب تاريخ الرومان، وتعرض في محاضراته للجذور الحضارية لليونان، وما كان لها من أثر في الدول والأمم،

وما كان لتاريخ مصر من علاقة بالتاريخ اليوناني.(وقد نُشرت هذه المحاضرات في صحيفة الجامعة المصرية حين كان د. طه حسين أستاذاً للتاريخ القديم والروماني في الجامعة المصرية، ما بين 1919 و 1925م).

وترجم أثناء التدريس بعض الآثار اليونانية في الأدب والفكر والسياسة.

- ففي سنة 1919م وضع كتاباً عن "آلهة اليونان"، وقد تناول فيه الظاهرة الدينية عندهم، وطالب في مقدمة الكتاب أن تتم العناية باليونانيات وأن تُدرس الدراسة التي تستحقها.

- وفي سنة 1920م ظهر له كتاب" صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان"؛ عرض فيه للشعراء المسرحيين اليونان بطريقة تُقرِّبهم إلى قراء العربية.

- وفي سنة 1921م ترجم" نظام الأثينيين" لأرسطو، ولاحظ د. علي أومليل أن لهذه الترجمة دلالتين: أولهما أن مخطوط الكتاب عُثِر عليه في مصر مكتوبا على ورق البردي. ويَستَدلُّ بذلك طه حسين على وجود صلات قديمة بين مصر واليونان، ومن ثم تتعرف مصر على أصول الحضارة الغربية، فتربط الصلة بماضيها الحقيقي.

الدلالة الثانية أن مصر كانت مقبلة على حياة سياسية ديمقراطية، فحاول د, طه حسين أن يعرِف المصريين بأصول الديمقراطية السياسية.

– وفي سنة 1921م نشر مقال في "مجلة الهلال" عنوانه" مذهب أرسطو في الفلسفة والاجتماع".

– وفي سنة 1925م نشر كتابه"قادة الفكر"، ومعظم هؤلاء من فلاسفة اليونان وساستهم ميروس، سقراط، أفلاطون، أرسطو، الإسكندر المقدوني. وقد أصبح الكتاب مقررا على طلاب المدارس الثانوية؛ توجيهاً لأنظار الشباب إلى قادة الفكر البشري.

جاء في كتاب "قادة الفكر" أن"العقل الإنساني ظهر بمظهرين مختلفين: أحدهما يوناني خالص، وهو الذي انتصر، وهو الذي يسيطر على الحياة ألإنسانية اليوم، والآخر شرقي انهزم مرات أمام المظهر اليوناني، وهو الآن يلقي السلاح ويسلم للمظهر اليوناني تسليما".

- وفي سنة 1926م، ينقل د. طه حسين من كرسي التاريخ القديم إلى كرسي الأدب العربي، وقد اعتبر المستشرق الإنجليزي انتقاله ضربةً لمشروعه الهيليني؛ فقد وجد أن د. طه حسين قد"توقف عن المضي فيما كان مقدماً عليه من الدراسات القديمة، وكانت نهاية مبكرة تدعو إلى الأسف.

فالمرجو أن لا يكون المثل الذي ضربه الأستاذ في حماسته وتوفره على الدرس قد ذهب سدى في أوساط الجيل الصاعد".

ولا مبرر لهذا الأسف؛ إذ ظلت كتابات د. طه حسين تعبر عن افتتانه باليونان، وإن انتقل إلى تدريس الأدب العربي!

- ففي سنة 1933م نشر كتابه"على هامش السيرة"، فلم يسعه إلا أن يذكر اليونان والأوديسا، ويتعرض في صميم الكتاب إلى آلهة اليونان: أبولو، والمريخ، وأرتميس، وأثينا، وتحدث عن الوثنية وارتباطها باليهودية والنصرانية.

- وفي سنة 1938م نشر كتابه"مستقبل الثقافة في مصر"، وقال:"إن التلاميذ يتعلمون في المدارس أن مصر عرفت اليونان منذ عهد بعيد جدا، وأن المستعمرات اليونانية قد أقرها الفراعنة في مصر قبل الألف الأول قبل المسيح (...) وأن العقل المصري قد اتصل بالعقل اليوناني منذ عصوره الأولى؛ اتصال تعاون وتوافق، وتبادل مستمر منظم للمنافع في الفن والسياسة والاقتصاد".

فمصر دولة يونانية أو كاليونانية، وهي مصدر من مصادر الثقافة اليونانية للعالم القديم،"فلا ينبغي أن يفهم المصري أن بينه وبين الأوربي فرقاً عقليا قويا أو ضعيفا (...) وإنما كانت مصر دائما جزءاً من أوربا؛ في كل ما يتصل بالحياة والثقافة على اختلاف فروعها وألوانها".

ويقرر د. طه حسين في كتابه هذا أن عناصر العقل العربي كلها، شأن العقل الأوربي؛ ترجع إلى أصول ثلاثة: حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن، وحضارة الرومان وما فيها من سياسية وفقه، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير".

وآمن أشد الإيمان وأعمقه بأن مصر لن تظفر بالتعلم الجامعي الصحيح إلا إذا عنيت باللغتين اليونانية واللاتينية.

ثالثا: د. طه حسين وأرسطو

لقد ظل الفكر اليوناني تتردد أصداؤه في كتابات د. طه حسين، كما ظهر افتتانه بأرسطو بشكل خاص. وقد ذكر في ترحيبه بظهور "كتاب الأخلاق" لأرسطو؛ الذي ترجمه لطفي السيد أنه لا يرى بعض الفرنسيين مبالغا حين قال:"لو أن هذه الحضارة الحديثة أُزيلت وأُريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطوطاليس أساسا لهذه الحضارة الحديثة".

بل يفصح د. طه حسين عن غايته في نهاية ترحيبه فيقول:"لقد كانت فلسفة أرسطوطاليس أساس النهضة الغربية الأولى، وأساس النهضة الأوربية في العصر الحديث، ويجب أن تكون أساس النهضة العلمية في مصر الحديثة"(15). واقترح في نهاية مقاله أن يكون كتاب الأخلاق لأرسطو موضوع درس مفصل دقيق في الأزهر الشريف والمدارس العليا غير الفنية.

وفي بحثه"تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر"، الذي قدمه للمؤتمر الثاني عشر لجماعة المستشرقين (عقد بليدن في سبتمبر 1931م)؛ قرَّر أن البيان العربي منذ نشأته إلى أوان نضجه،"كان في جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولا، وبالبياني اليوناني أخيراً، وإذاً لا يكون أرسطو المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها، ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول في علم البيان".

و في هذا البحث فجر قضية التأثير اليوناني في البيان العربي، وجعل هذا البيان من مرحلته تأسيسه إلى أوان نضجه خاضعا للأفكار الأرسطية كما جاءت في كتاب الخطابة.

فهو يرى أن المعتزلة بفضل تضلعهم في الفلسفة اليونانية كانوا من مؤسسي البيان العربي؛ إذ كانوا أهل جدل، اتصلوا بالمنطق كما اتصلوا بالخطابة، بل إن المعتزلة أثروا – في نظره – أيضا في الأدب العربي، فظهر تأثير الهيلينية واضحا في نتاج الشعراء ونتاج الكتاب.والجاحظ مؤسس البيان العربي من متكلمي المعتزلة! فيكون البيان العربي متأثرا في نشأته الأولى باليونان!

أما عبد القاهر الجرجاني، الذي يمثل مرحلة النضج في البلاغة العربية، فلم يكن في رأي د. طه حسين إلا فيلسوفا يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه، واعتَبر كتاب"دلائل الإعجاز" جهدا صادقا خصبا في التأليف بين قواعد النحو العربي وبين آراء أرسطو العامة في الجملة والأسلوب والفصول.

ونظراً لما لهذا البحث من تأثير في أنظار مؤرخي النقد والبلاغة العربيين، سأعود إليه في مناسبة قادمة بحول الله تعالى.

الخلاصة :

أن د. طه حسين رسَّخَ مقولة التأثير في الثقافة العربية، وجعل البيان العربي منذ نشأته إلى أوان نضجه خاضعاً للتأثير الأرسطي، وجعل العلم يلتَمس من لدن المستشرقين. وقرر أن العقلية المصرية أقرب إلى العقلية الغربية منها إلى العقلة العربية. وهذه الآراء هيأت النفسية العربية للإحباط، واستلذاذ التبعية، والذوبان في الحضارة الغربية، والاستهانة بالحضارة الإسلامية العربية!

الفكر الفلسفي ل طه حسين

يحتل طه حسين (1889-1973) موقعا هاما في مقارعة الأصولية والسلفية، فكرا وممارسة، من خلال ما قدّمه من أفكار تجديدية استندت إلى المنهج العقلاني في قراءة التراث العربي الإسلامي وفي الإضاءة على أسباب التخلّف الإسلامي العربي ومنه تعيين بعض سبل الخروج من الماضي نحو المستقبل. يتم وضع طه حسين في طليعة رواد التنوير في العالم العربي، وأحد القادة المكافحين والمصارعين في وجه القديم التقليدي والحديث التجديدي. أدركت قوى التقليد والسلفية والظلامية في مصر مبكّرا خطورة طروحاته والآثار السلبية التي ستلحق بها من تركها تتفاعل داخل النخب المصرية، فامتشقت سيف الحرب التكفيرية ضدّ طروحاته ووظّفت موقعها في البلاط من أجل كبح جماح أفكاره بل وإجباره على التراجع عنها. لذا سجل طه حسين اسمه مبكّرا بوصفه محاربا ضدّ الأصوليات والظلامية والتخلّف في مصر والعالم العربي.

فما هي الأفكار الجديدة التي أتى بها طه حسين ليصنّف معاديا للإسلام، ولماذا قادت المؤسسة الدينية التي تخرج منها أي الأزهر تلك الحملة الشعواء ضدّه، ولماذا تخلّى عنه أقطاب من الليبرالية السياسية واتخذوا موقفا مسايرا للمؤسسة الدينية؟ أسئلة تجد جوابها في ما أتى به طه حسين من نشر للفكر العقلاني الذي يشكّل العدو الأكبر للفكر السلفي التقليدي والأصولي .رغم أنّ طه حسين قدّم كثيرا في الأدب والسياسة والفلسفة، إلاّ أنّ كتابه "في الشعر الجاهلي" الصادر عام1926 يتميز بأنّه سلّط الضوء من خلاله على منهج الفكريّ في قراءة التراث، كما شكّل كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" الصادر عام 1937 محاولة لوضع برنامجه الإصلاحي موضع التطبيق خصوصا في مجال التعليم. لذا سيجري التركيز على الأطروحات التي اعتبرت مساً بمقدّسات واقتحاماً لمقولات فكرية سائدة وتمردا على التقليد المهيمن في الثقافة المصرية.

عصر طه حسين: السياق الاجتماعيّ والسياسيّ والفكريّ

يشكّل النصف الأول من القرن العشرين المدى الزمني الأبرز الذي سجّل فيه طه حسين أبرز أفكاره الإصلاحية وخاض عبرها صراعه السياسي والفكري مع البلاط والمؤسسة الدينية على السواء. امتازت تلك المرحلة بانتشار كثيف للأفكار الليبرالية التي حملتها حيث تأثرت بشعارات الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة وتلقحت بفكر الأنوار الأوروبية خصوصا قضية الديمقراطية وحق التعبير واستخدام المناهج العقلانية في قراءة قضايا الحاضر إلى أي ميدان انتمت. وشكل طه حسين واحدا من رواد الفكر التنويري وهو الذي تشبع به من خلال إقامته ودراسته في فرنسا. في الوقت نفسه كانت مصر تعيش تحت تأثير سلطتين مستبدتين وقاهرتين للمواطن المصري، الأولى تتمثل بالاحتلال البريطاني لمصر، والثانية بالحكم الملكي الخاضع لأوامر الاحتلال والمنفذ لرغباته في حرمان المصريين من الاستقلال الذي كان يشكل لدى النخب المصرية الشرط الضروري لفك الحجر عن تخلف مصر والبوابة التي تدخلها إلى التحديث والحداثة. لم تكن المؤسسة الدينية الممثلة بالأزهر بعيدة عن العلاقة الإيجابية مع البلاط واستطرادا مع الاحتلال،

وكانت تلعب دورا خطرا من خلال كبت ومنع أي أفكار تجديدية على الصعيد الفكري – الثقافي، وهو دور يضع العصي في معركة التنوير والتحرر في آن.

كان على طه حسين الانخراط في الحياة السياسية ومقارعة السائد من الفكر المتخلف كما يراه من خلال الثقافة. لم يكن جاهلا للصعوبات التي ستواجهه وللعقبات التي ستعترضه لاسيما وأن طروحاته المخالفة أتت مباشرة بعد المعركة الفكرية السياسية التي قادها الأزهر والبلاط في وجه الشيخ علي عبد الرازق الذي كان قد نشر قبل عام كتابه "الإشكالي" المعنون ب"الإسلام وأصول الحكم". وهي معركة لم تكن آثارها قد جفت عندما نشر طه حسين كتابه "في الشعر الجاهلي" عام 1926، مما وضع مصر أمام معركة مزدوجة في المضمون لجهة تمرد الكاتبين على الأفكار السائدة وطرحهما لمقولات تهزّ المؤسسة الدينية التي فرضت حجرا على حرية التفكير، واستخدمت البلاط لتنفيذ قراراتها في منع التجديد الفكري من أن يرى النور. فكيف ترجم طه حسين مشروعه التنويري وما المحاور المركزية التي شكلت قاعدة هذا المشروع؟

ميادين الفكر التنويري لطه حسين:

كتب طه حسين في كثير من الميادين الفكرية والأدبية والشعرية والتاريخية، فترك لنا تراثا كبيرا لا يزال حتى اليوم يشكل واحدا من منارات الفكر العربي. لكن حيزا من كتاباته المباشرة التي أتت مخالفة للسائد وضعته في معركة مع التقليد والسلفية والأصولية السائدة في مصر، وهي كتابات حملها بشكل أساسي كتاباه: في "الشعر الجاهلي" (1926) و"مستقبل الثقافة في مصر .(1937) "لكن مقدمات هذين الكتابين لجهة المنهج والمضمون كانت في كتاباته الأولى وخصوصا رسالته لنيل الدكتوراه، أي كتاب "تجديد ذكرى أبي العلاء (1915) "حيث يقول :"إن الحياة الاجتماعية إنما تأخذ أشكالها المختلفة، وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العلل والأسباب التي لا يملكها الإنسان، ولا يستطيع لها دفعا ولا اكتسابا... إن كل أثر مادي ومعنوي ظاهرة اجتماعية أو كونية ينبغي أن ترد إلى أصولها وتعاد إلى مصادرها."

بناء على هذه المقدمات قدم طه حسين في ما أنتج لاحقا "مشروعه التنويري" الذي يمكن اختصاره بالدفاع عن العقلانية والعلمانية والحرية والديمقراطية. أما تجليات وتفاصيل هذا المشروع فيمكن تلمسها في كل النصوص التي أنتجها. عمد طه حسين إلى قراءة متجددة للتراث الإسلامي العربي وسعى بجرأة إلى إخراجه من الحيز اللاهوتي الذي كان هذا التراث أسيره بما يمنع نقده ومساءلته، وإخضاعه إلى القراءة التاريخية بما يسمح رؤيته انطلاقا من الحاضر، وبما لا يترك أي مجال خارج النقد والتحليل الموضوعي. أما الجديد غير التقليدي الذي أتى به طه حسين وطبقه في قراءته المتعددة على التراث، فهو استخدام "منهجية الشك" في ما كان يعتبر من المسلمات التاريخية والحقائق الثابتة والتي وجدت أوضح صورها في كتابه الإشكالي :" في الشعر الجاهلي" حيث يقول :"نعم يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأن ننسى ما يضادّ هذه القومية، وما يضادّ هذا الدين، يجب أن لا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلاّ مناهج البحث العلمي الصحيح" (ص393).

ويتابع طه حسين شرحه لمنهجه الجديد فيقول :"وليس حظ هذا المذهب منتهيا عند هذا الحد، بل هو يجاوزه إلى حدود أخرى أبعد منه مدى وأعظم أثرا. فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ أو ما أتفق الناس على انه تاريخ. وهم قد ينتهون إلى الشك في أشياء لم يكن يباح الشك فيها." قاده هذا المنهج في التطبيق إلى نسف بديهيات موروثة خصوصا في النص الديني حيث يقول :"للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها".(من كتاب في الشعر الجاهلي، ص399).

هناك شبه إجماع من دارسي طه حسين أن رؤيته المنهجية القائمة على الشك للوصول إلى اليقين والتي انتهى بها إلى تحكيم العقلانية مقياسا أوحد للحقيقة، هذه المنهجية تشكل أهم الإسهامات والإنجازات التي قدمها إلى الفكر العربي الحديث والتي تمثل أهم الأسلحة في مواجهة المسلمات التقليدية والماضوية السائدة،

وهي مسألة لا تزال تشكل مصدر العداء الأصولي المتواصل لطه حسين وفكره.

يعتبر طه حسين أن الانطلاق من التزام العقلانية يجب أن تكون مرشد القراءة لكل جوانب الحياة سواء أكانت ثقافية أم سياسية أم اجتماعية .. لأنه يستحيل الوصول إلى التحديث في المجتمعات العربية والإسلامية من دون التزام هذه العقلانية وتنصيبها الحكم والحاكم في آن. لم يبق طه حسين في إطار النظر بالنسبة لرؤيته في وجوب التزام المنهج العقلاني، بل طبقه في مجمل أبحاثه المتعددة الجوانب، واعتبر أن هذا المنهج يحرر العقل من كل افتراضات مسبقة ومعيقة للتفكير والنقد الحر، وهي نظرة يمكن اعتبارها مدخلا لإعادة الاجتهاد في كل شيء وخصوصا في النص الديني، وذلك بعد قرون على إقفال هذا الباب منذ سيادة الشافعي وهيمنته على الفكر الديني، مرورا بعصور الانحطاط التي غرقت فيها المجتمعات العربية والإسلامية.

يقرن طه حسين تحقق العقلانية بالعلم وتجديد العقل، ويرى ارتباطا وثيقا بين العقل والحرية ، وكون هذه الحرية لن تتحقق بدون قيام العلمانية التي ترتبط بدورها بتحديث الدولة وإشاعة الديمقراطية. يشير في مقطع معبر عن وجهة نظره في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" حيث يقول:"إن النظام الديمقراطي يجب أن يكفل لأبناء الشعب جميعا الحياة والحرية والسلم. وما أظن الديمقراطية تستطيع أن تكفل غرضا من هذه الأغراض للشعب إذا قصرت في تعميم التعليم الأولي، وأخذ الناس جميعا به طوعا أو كرها. فلأجل أن تكفل الديمقراطية للناس الحياة يجب قبل كل شيء أن تكفل لهم التصرف في هذه المذاهب المختلفة التي تمكّن الفرد من كسب قوته...

من الطبيعي أن الحياة التي يجب أن تكفلها الديمقراطية للناس إنما هي الحياة القابلة للتطور والرقي من ناحيتها المادية ومن ناحيتها المعنوية...فيفرض عليها أن تمنح أفراد الشعب وسائل الكسب التي يسعون بها في الأرض ويلتمسون بها الرزق. وأن تزيل من طريقهم ما قد يقوم فيها من العقبات التي تنشأ عن الجور والظلم، وعن التحكم والاستبداد وعن مقاومة الطبيعة نفسها لتصرف الإنسان" .

تطبيقا لمنهجه، دعا طه حسين إلى اعتماد القرآن نقطة انطلاق التاريخ العربي في جميع وجوهه التاريخية والأدبية والسياسية، ومن أجل ذلك يجب قراءة مراحل التاريخ السابق للإسلام أي ما يتعارف عليه بالجاهلية، قراءته من خلال القرآن وليس عبر نتاج هذه المرحلة خصوصا منها الشعر الجاهلي. وصل به البحث في هذا المجال إلى الشك في ما هو سائد من مفاهيم حول الحياة الجاهلية، وصولا إلى التشكيك في وجود هذا الشعر أصلا. قادت أبحاث طه حسين في الشعر الجاهلي إلى القول إن التعمق في دراسة حياة قريش في الجاهلية تظهر أن حياة دينية حقيقية كانت تمارسها وتفرض قواعدها من خلالها، وهذه الحياة الدينية تفسر الأسباب التي جعلتها تتصدى لدعوة محمد التي كانت تراها وسيلة تدمير وإلغاء حياتها الدينية، ويصل طه حسين من ذلك للقول بان هذه الحياة لا يمكن العثور عليها أو تبينها من خلال الشعر الجاهلي:"ليس هذا الشعر الذي ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم بل لا يمثل لغتهم ، أليس هذا الشعر قد وضع وضعا، وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن في هذا" على ما يورد في كتابه "في الشعر الجاهلي."

لم يقتصر مشروع طه حسين التنويري على المنهج العقلاني الذي استخدمه في قراءة التراث وخصوصا الشعر الجاهلي، بل استكمل هذا المشروع بتناول التعليم ووجوب تعميمه والأهم إصلاح مناهجه. قدم طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" عام 1937 مشروعا حضاريا اعتبر فيه" الثقافة والعلم أساس الحضارة والاستقلال والحرية وسيلة الكمال وسبب من أسباب الترقي، ينبغي الملاءمة بين حياتنا ومجدنا القديم". ولأن التعليم ومناهجه كانت تحت هيمنة الأزهر، كان لا بد لمشروع طه حسين أن يطال بشكل جوهري إصلاح المؤسسة الدينية- التعليمية الأم الممثلة في الأزهر. لم تكن آثار حملة الأزهر على طه حسين بعد إصداره كتاب "في الشعر الجاهلي" قد جفت بعد، ولم يكن طه مقصرا في نقده للمؤسسة بشكل غير مباشر من خلال تعرضه إلى رجال الدين عبر كتابه "الأيام "الذي يروي فيه سيرته الذاتية ومن بينها علاقته برجال الدين الأزهريين وتشخيص ما يتصفون به من جهل وتجهيل "واقتناص حقوق الآخرين بعد مصادرة عقولهم وإتلافها".

تابع طه حسين الطريق التي شقها محمد عبده قبله بنصف قرن تقريبا في وضع اليد على مصدر الخلل في التعليم في مصر وبالتالي في إنتاج الثقافة والتفاعل مع التقدم والتطور. لذا لم يكن غريبا أن يرى طه حسين في الأزهر أخطر العوائق وأصعبها أمام التحولات العلمية والمعرفية والثقافية في مصر، وذلك بالنظر للموقع الديني التقليدي الذي يحتله الأزهر وما يرمى عليه من مهابة وسلطة تصل إلى حدود التقديس، وهي مهابة تجد ترجمتها على صعيد السلطة السياسية التي يشكل الأزهر أحد دعائمها الرئيسية مقابل الحرية التي تعطيها السلطة للأزهر في الحجر على العقول وسن قوانين المسموح به وغير المسموح من أفكار .

إضافة إلى ذلك يتمتع الأزهر بقدرة كبيرة في تجييش الجمهور الشعبي ضد أي طروحات مخالفة لآرائه ووسمها بالهرطقة والإلحاد بما يبرر لجمهور معبأ برمزيات الدين من الانقضاض على أي مجتهد أو مفكر وإسكات صوته وصولا إلى هدر دمه، وهو أمر سبق أن خبرته مصر عامي 1925 و1926 مع الشيخ علي عبد الرازق وطه حسين نفسه.

ظل طه حسين طوال حياته يهجس في إصلاح التعليم في مصر، وعندما توفرت له ظروف المشاركة في السلطة سعى إلى تحقيق هذا الهدف من دون أن يتمكن من تحقيق كل ما يريد .في المقابل واستكمالا لإصلاح التعليم احتلت قضية تحرير المعرفة من السلطة الدينية وقوانينها التقليدية والبالية محورا أساسيا في كتاباته وسجلاته، ورأى أن هذا الهدف متصل بالخصومة بين العلم والدين والخلط بينهما.

يطرح وجهة نظره في كتابه "بين العلم والدين" فيقول :"الخصومة بين العلم والدين قديمة يرجع عهدها إلى أول الحياة العقلية الفلسفية. إن هذه الخصومة بين العلم والدين ستظل قوية متصلة بما قام العلم وما قام الدين، لأن الخلاف بينهما أساس جوهري...

إن الخصومة لم تكد تنشأ بين العلم والدين أو بين العقل والدين حتى دخلت فيها السياسة فأفسدتها وانصرفت عن وجهها المعقول إلى وجه آخر لم يخل من الإثم بل من الإجرام... الخلاف بين العلم والدين لا يستمد قوته وعنفه من الفرق بين جوهر العلم والدين فحسب،

وإنما يستمد قوته وعنفه من مصدر آخر هو أن الدين خط الكثرة والعلم خط القلة، فسواد الناس مؤمن ديان مهما يختلف العصر والطور والمكان، والعلماء والمفلسفون قلة دائما."

طه حسين في مواجهة السلطتين الدينية والسياسيّة:

واجه طه حسين حملة شعواء ضد التجديد الفكري الذي طرحه بوضوح في كتابه "في الشعر الجاهلي"، قاد الحملة مؤسسة الأزهر التي رأت خطورة طروحات طه حسين على منظومتها الفكرية التقليدية السائدة. وتمكن الأزهر من تجييش معركة أوسع عبر استحضار السلطة السياسية التي لم يكن طه حسين متلائما في فكره ومنهجه مع توجهاتها.

ولإعطاء المعركة بعدا أكبر كان على الأزهر استخدام ما يملكه من قوة سياسية وشعبية ورمزية مكنته من تحويل المعركة ضد طه حسين من إطارها الفكري إلى معركة سياسية بكل معنى الكلمة استحضرت عبرها الشارع لمواجهة "الخطر الكبير" الذي يمثله ذلك المفكر "المارق" والمتمرد على أفكار رجال الدين. عاشت مصر في تلك الفترة ، وقبلها بعام مع علي عبد الرازق، ما كانت عرفته أوروبا في عصور "محاكم التفتيش" في القرون الوسطى التي قادتها الكنيسة آنذاك

وأخضعت بموجبها المفكرين والعلماء إلى ضروب شتى من الاضطهاد وصل إلى إحراقهم وإعدامهم، في حال مخالفة ما كانت الكنيسة قد وضعته من أفكار وقوانين من غير المسموح التعرض لها أو نقدها أو نقضها.

تركزت اتهامات الأزهر ضد طه حسين على جملة مسائل أولها اعتبار كاتب "في الشعر الجاهلي" قد أهان الدين الإسلامي من خلال تكذيبه القرآن حول إبراهيم وإسماعيل عندما يورد في كتابه:"للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي..". ويتعلق الاتهام الثاني بما تعرض له المؤلف في شأن القراءات السبع التي اجمع عليها المسلمون والتي باتت من المسلمات والثوابت.

أما الاتهام الثالث فيرى أن طه حسين قد طعن طعنا فاحشا بالنبي محمد لجهة نسبه. أما الاتهام الرابع فيتناول مسألة إنكار طه حسين كون الإسلام يحتل الأولوية في بلاد العرب من خلال قوله :"أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أولية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي .

وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم، وأن هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور ثم عرضت عنه لما أضلها به المضلون وانصرفت إلى عبادة الأوثان". وبناء على ذلك طلب شيخ الأزهر اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة والفعالة ضد طه حسين بناء لطعنه ومسه بدين الدولة ووجوب تقديمه إلى المحاكمة. في أي حال لم تكن هذه المرة الأولى التي يتعرض فيها طه حسين إلى مثل هذا العداء، فقد ناله منه قبل عشر سنوات عند صدور كتابه "تجديد ذكرى أبي العلاء" حيث اتهم بالإلحاد والهرطقة وجرت مطالبة بحرمانه من حقوقه الجامعية وسحب شهاداته وإلغائها .

أما على الصعيدين الشعبي والسياسي، فلم تكن المعركة أقل ضراوة منها في المؤسسة الدينية. جرت عملية تجييش شعبي ضد طه حسين عبرت عن نفسها بمظاهرات في مدن القاهرة والدلتا والصعيد، وحشدت فيها من كل الفئات الاجتماعية في مصر، منددة بأفكار طه حسين ومطالبة بمحاكمته واتخاذ الإجراءات الردعية المناسبة في حقه.

أما على الصعيد السياسي، فكما جرى مع قضية علي عبد الرازق قبل عام، انقسمت الحياة السياسية بين مدافع عن طه حسين وأفكاره وبين من ماشى المؤسسة الدينية والبلاط. لم تكن السلطة السياسية على توافق مع طه حسين الذي ظل أمينا لأفكاره وأهدافه في الإصلاح، ولم تبد هذه السلطة ارتياحا لمقولاته التي رأت فيها، على غرار المؤسسة الدينية، مخاطر تهدد الأسس التي تقوم عليها السلطة وبموجبها تحقق الهيمنة على العقلية الشعبية السائدة.

في هذا المجال عاد الزعيم المصري سعد زغلول الذي كان يرأس البرلمان المصري ليكرر الموقف إياه الذي سبق اتخاذه تجاه علي عبد الرازق فوقف ضد طه حسين وماشى المؤسستين الدينية والسياسية، وهو موقف يمكن وصفه ب"الانتهازية" هدف زغلول من ورائه إلى إرضاء الجمهور الغاضب ضد طه حسين.

العقلانية المجهضة في مشروع طه حسين:

لا ينفصل إخفاق مشروع طه حسين التنويري عن السياق التاريخي ودرجة التطور الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في مصر والعالم العربي. يمكن قراءة مشروع حسين التنويري في محطتين تاريخيتين لعبتا سلبا ضد توجهاته وأعاقتا برنامجه الإصلاحي. المحطة الأولى تعود إلى الفترة التي سبقت قيام الانقلاب العسكري في تموز 1952 وهي الفترة التي اتسمت باختراق الفكر الليبرالي المتصل بفكر الغرب وحداثته والذي عبر عنه طه حسين أكثر من أي مفكر آخر. وكما جرت الإشارة، حاول حسين تجديدا في الثقافة والتعليم، لكن فكره ظل أسير النخب و"الأنتلجنسيا " المصرية ولم تتوفر له القوى الاجتماعية والاقتصادية لحمله وجعله مشروعا وطنيا عاما، وهو أمر إذا كان قد انطبق على رواد النهضة الأوائل مثل الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم.. فهو عاد يكرر نفسه في النصف الأول من القرن العشرين مع علي عبد الرازق وأمين الخولي وطه حسين ...

لا تتوافق عادة صحة وصواب مشروع سياسي أو فكري – ثقافي بشكل آلي مع وجود قوى تحمله، وهو ما أصاب المشروع النهضوي على امتداد أواخر القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين. وفي نظرة مقارنة مع الراهن، يتكشف يوما بعد يوم ضحالة وفشل المشروع الأصولي الإسلامي، فكرا وممارسة، لكن هذا الفشل لا يزال يترجم نفسه بتصاعد متزايد لحجم الموالين لهذه الأصولية في المجتمعات العربية والإسلامية، وبانكفاء متزايد أيضا للقوى العقلانية المناهضة لهذا المشروع والمعبرة عن الطموح إلى تقدم المجتمعات العربية ودخولها العصر وتجاوز التخلف المريع الذي تقيم فيه.

المحطة الثانية هي التي لم يتوافق فيها طه حسين مع سياسة الضباط الأحرار الذين تولوا الحكم في مصر العام 1952. اتسمت تلك الفترة طوال العهد الناصري الذي عايشه طه حسين بكامله بتوجهات لا تلائم قناعاته السياسية والفكرية، فهو مشبع بقدسية حرية الفكر، فيما كمم رجالات "الثورة" الأفواه عبر القمع الذي مارسوه ضد حرية الفكر والتعبير ومنع الأحزاب السياسية وتسليط أجهزة القمع وممارسة الاستبداد السياسي والفكري..

مما جعل طه حسين بعيدا جدا عن المرحلة القومية التي افتتحتها الناصرية، خصوصا وانه كان يحمل قناعات حول دور مصر وموقعها المتوسطي المغاير للدعوة القومية العربية التي رفع لواءها عبد الناصر.

كان طه حسين يرى في السياسة الجديدة لرجالات الثورة تدميرا للإنسان ولعقله والحجر على فكره بما يبقيه أسير الفكر الأسطوري والخرافي والديني الغيبي المسيطر على العقول بحكم الترسانة الفكرية السائدة، فيما كان كل طموحه وآماله تتركز على تحرير الإنسان من التخلف الفكري والعقلي والاجتماعي بما يدخله في إطار العلم الحديث والتقدم. من هنا كانت خيبته كبيرة على امتداد تاريخه النضالي في شتى الميادين التي سعى إلى التأثير فيها.

طه حسين والزمن الراهن:

إذا كان طه حسين حصد الخيبات في حياته الفكرية، وكان أصعبها عليه التراجع عن بعض ما كتبه" في الشعر الجاهلي" وهو تنازل أضطر إليه بحكم الضرورة وليس بحكم الاقتناع، إلاّ أن ما أثاره طه حسين من قضايا، وما كتب فيه من تراث، يظل يكتسب في جوهره راهنية حقيقية. فأسئلة عصر النهضة في العقلانية وفصل الدين عن الدولة وعدم استخدام الدين في السياسة وتقديس الحرية بمختلف وجوهها الفكرية والسياسية وتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة أمام القانون، كلها أسئلة وقضايا تكتسب أهمية في استحضارها وطرحها. من هنا يبدو طه حسين محتفظا برهنيته بالنظر إلى أن المسائل التي ناضل من أجل تحقيقها لا تزال تشكل محور مشروع النهضة العربية المتوخاة والتي لا خلاص للمجتمعات العربية والإسلامية من دون التصدي لمفاصله الأساسية. لكن العودة إلى طه حسين لا تكتمل إلاّ باستحضار العوامل الرئيسة التي أفشلت مشروعه سعيا لتجاوزها

وعلى رأسها فقدان القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القادرة على حمل المشروع ومواجهة السياسات السائدة وفي طليعتها بنى التخلف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني.

إن تكون هذه القوى وفعلها خير تكريم لطه حسين وأفعل سلاح في مواجهة الأصوليات التي توظف الدين في خدمة مشروعها الماضوي، وبذلك يتحقق لطه حسين ثأره من الذين قادوا ضده حملة ظلامية لمنعه من الاستمرار في التفكير ونشر الثقافة العقلانية التي في نظره وحدها تشكل سبيل الخلاص للعرب والمسلمين على السواء.

المجتمع والأدب في مرايا طه حسين

يؤكد طه حسين أن الظواهر الثقافية ـ ومنها الأدب ـ ظواهر اجتماعية أساساً، ذلك لأن الطبيعة الاجتماعية للإنسان ترد كل أشكال الثقافة التي ينتجها إلى عصره وبيئته. لن يصل بنا هذا التأكيد إلى شيء من العلاقة المعقدة بين البنية الفوقية والبنية التحتية، ليس حديث محدد عن العلاقة بين قوى الإنتاج وصلتها بإيديولوجية، تتوسط بينهما وبين الأعمال الأدبية، وإنما نحن إزاء لون من الحتمية الاجتماعية المبسطة، إذا صح هذا التعبير، وتتصف هذه الحتمية بآلية واضحة، تربط بين كل تغير في الظواهر الثقافية وأي تغير في المجتمع، بحيث تبدو العلاقة بين الاثنين أشبه بالعلاقة بين الصورة في المرآة وموضوعها الموازى لها.

كما تتصف هذه الحتمية بتبسيط بالغ، فما نسميه الواقع الاجتماعي، ونرده إلى علاقات اجتماعية محددة، يمكن ضبطها ووصفها، ليس له مقابل محدد عند طه حسين، بل نحن إزاء أو صاف عامة، تتحدث عن البيئة مثلاً، وعلى نحو قد تعنى معه البيئة العوامل الجغرافية، أو الأدوات الإنتاجية، أو علاقات الإنتاج،

أو النظم السياسية، أو المناخ الفكري بوجه عام، بل قد تضيق دلالة المصطلح لتنحصر في الوضع العائلي للأديب، وقد تتسع هوناً لتلمح صلة هذا الوضع العائلي بالوضع الطبقي العام، وقد تعني البيئة كل هذه الأشياء مجتمعة. وما يقال عن البيئة يمكن أن يقال عن بقية المصطلحات، من مثل العصر، أو الحياة، أو المجتمع أو ما أسماه طه حسين ـ في بداية حياته العلمية (العلل الاجتماعية والكونية).

والذي لا شك فيه أن التبسيط الواضح لمثل هذه المصطلحات كان يتجاوب مع المفهوم الآلي للعلاقة بين الظواهر الثقافية وأساسها المادي. وهو تجاوب يقوم على محاولة توفيقية تضم معطيات فكرية متعددة. وسنجد ـ في هذه المحاولة ـ إشارة إلى أرسطو الذي وصف الإنسان بوصفه حيواناً اجتماعياً، وإفادة من ابن خلدون الذي (آمن .. في الحقيقة بمبدأ الجبر التاريخي، ولنا كل الحق في أن نعتبر أنه قد سبق مونتسكيو من تلك الوجهة)، ومحاولة للربط بين قوانين ابن خلدون وقوانين أوجست كونت عن طبيعة الظواهر الاجتماعية، ومقارنة بين مقدمته و ((روح القوانين)) و ((العقد الاجتماعي)) لمونتسكيو وروسو.

وسنجد في هذه المحاولة ـ أيضاً ـ بعض الأفكار الأحدث التي ترجع إلى دوركايم أو سان سيمون، وهما مفكران يلتقيان في ذهن طه حسين ـ مع غيرهما ـ ليؤكد الجميع تطور المجتمع الإنساني، وخضوع التاريخ إلى قوانين أساسية تحكمه. وإذا وضعنا إلى جانب هؤلاء مفهوم تبين عن ثلاثية الجنس والبيئة والزمان، أدركنا وجهاً آخر من أوجه المحاولة التوفيقية في صياغة هذه الحتمية الاجتماعية.

ولقد تجلت هذه الحتمية، في البداية، من خلال تجديد ذكرى أبي العلاء (1914)، واستمرت بعد ذلك مقترنة ـ بدرجات مختلفة ـ بنوع من ((الجبر في التاريخ)) يلغي الفاعلية الإنسانية. صحيح أن درجة الإلغاء تقل تدريجياً مع تغير طه حسين وتنوع ممارساته، ولكن المنظور الآلي المرتبط بالحتمية يظل باقياً لا ينتفي وجوده، كما يظل ((الجبر)) موجوداً بأكثر من شكل.

ولقد تحول الإنسان مع هذا ((الجبر)) إلى محصلة آلية لطائفة من العلل تحكم حركته، مثلما تحكم حركة كل شيء سواه. ومن الخطأ ـ كل الخطأ ـ فيما يقول طه حسين في ((تجديد ذكرى أبي العلاء))

أن ننظر إلى الإنسان نظرنا إلى الشيء المستقل عما قبله وما بعده. إن استقلال الإنسان أمر مستحيل استحالة المصادفة في هذا العالم الذي نعيش فيه. والحق كل الحق ـ فيما يقول طه حسين ـ أن هذا العالم يأتلف من أشياء يتصل بعضها ببعض، ويؤثر بعضها في بعض. فليس في هذا العالم شيء إلا وهو نتيجة من جهة، وعلة من جهة أخرى. ولذلك، فالإنسان بكل ماله من آثار وأطوار ((نتيجة لازمة وثمرة ناضجة، لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه وتصوير نفسه، من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان)).

وما ينطبق على الإنسان تعميماً ينطبق على الأديب تخصيصاً، فقد كان أبو العلاء ـ مثل غيره من الشعراء أو الأدباء ـ ثمرة من ثمرات هذه العمل (قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان، والحال السياسية والاجتماعية، بل والحال الاقتصادية، ولسنا نحتاج إلى أن نذكر الدين، فإنه أظهر أثراً من أن نشير إليه).

إن الإنسان ـ على هذا النحو ـ جزء من حركة التاريخ، وحركة التاريخ حركة جبرية ليس للاختيار فيها مكان. ويعني الجبر في التاريخ ((أن الحياة الاجتماعية إنما تأخذ أشكالها المختلفة، وتنزل منازلها المتباينة، بتأثير العلل والأسباب التي لا يملكها الإنسان، ولا يستطيع لها دفعاً ولا اكتساباً)). ويترتب على هذا الفهم أن كل أثر مادي أو معنوي، وكل ظاهرة اجتماعية أو كونية ينبغي أن ترد إلى أصولها، وتعاد إلى مصادرها، وليست هذه المصادر والأصول إلا هذه العلل المادية والمعنوية التي تتحكم في حركة التاريخ، كما تتحكم في ظواهر الحياة وفي مظاهر الأدب. ولذلك، تشبه القصيدة الخطبة والرسالة، وتشبه كلتاهما الحادثة التاريخية، من حيث هي نسيج من العلل ((يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء)).

وتقودنا الإشارة إلى الكيمياء ـ في هذا السياق ـ إلى قانون العلية الأساسي، ذلك القانون الذي ترتد إليه الحتمية الاجتماعية، وترتد إليه طبيعة الظواهر الثقافية، بوصفها معلولات تفضي إلى علتها. ولكن التشبيه بخضوع المادة لعمل الكيمياء يشير إلى تحولات تمر بها المعطيات داخل عمليات التفاعل الكيميائي التي تغير من عناصر المعطيات ذاتها،

فهل ينطبق الأمر نفسه على الظواهر الثقافية؟ وهل يمكن القول إن الظواهر الثقافية . رغم قيامها على قانون العلية . إنما هي ثمرة لتفاعل معقد لا يتسم بالثبات، بين عناصر تتحول عما كانت عليه في البداية، مما يعني أن الصلة بين الظواهر الثقافية وعللها ليست صلة مباشرة، أو بسيطة، وإنما هي صلة معقدة تقوم على دخول وسائط متعددة، تساهم في تعقيد عملية التفاعل ذاتها؟ إن الأمر لا يبدو على هذا النحو عند طه حسين.

ولا يلعب تشبيه الكيمياء . في هذا السياق . سوى دور يتصل بتأكيد قانون العلية الذي يدعم . بدوره . الحتمية فحسب. أما فكرة التفاعل الذي يحول العناصر، فإنها فكرة تتضاءل تحت سطوة الفكرة المقابلة عن الحتمية الاجتماعية التي تربط بين الظواهر الثقافية وعللها، في علاقة آلية، ويوازي فيها المعلول علته دون تحول جذري، أو توسط أو تفاعل بين الطرفين.

وتعكس الظواهر الثقافية ـ مع هذه الحتمية ـ المراحل التي يمر بها المجتمع، فتمثل الأوضاع القائمة فيه. ويقال إن الآداب والآراء تصور الجماعة، لأنها أثر من آثارها، وإن الأديب كائن اجتماعي، بل هو ((أجدر الناس بأن يكون هذا الحيوان الاجتماعي الذي تحدث عنه الفيلسوف القديم)).

قد يقول طه حسين ـ في سياق آخر ـ إن هذه الحتمية الاجتماعية تهون من الدور الفردي للأديب، ولا تستطيع أن تفسير العنصر الجوهري في الفن، وهو مشكلة الفرد، فتعجز عن مواجهة السر المزدوج الذي يجمع بين العبقرية الخاصة المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالفرد والاتجاه الأدبي المرتبط ارتباطاً مباشراً بالحتمية الاجتماعية. ولكن طه حسين يتجاوز هذا التناقض الظاهر بتأكيد صيغة تقوم على تولد العلل إحداها من الأخرى، وعلى نحو يوفق ظاهرياً بين الجبر الاجتماعي في حياة الجماعة والجبر النفسي في حياة الفرد، بحيث يصبح الجبر الأول علة للجبر الثاني، فيكون الأديب نفسه معلولاً لعلل اجتماعية تولد ـ بدورها ـ عللاً فردية، تنعكس جميعها في ناتج عمله الأدبي، وعلى نحو يمكن معه رد هذا الناتج إلى أصوله التي يتولد ثانيها عن أولها.

وبمثل هذا النحو من التفكير يمكن أن يقال إن الفرد قوة، قد تختلف عظَماً وضآلة ولكنها تظل قوة لها أثرها العظيم في تكوين القوة الاجتماعية فليس من المنطقي أن نعتبر الفرد كماً مهملاً. ولكن هذا الفرد لم ينشئ نفسه. وإنما هو أثر اجتماعي في وجوده المادي والمعنوي، فليس المأمون ـ مثلاً ـ هو الذي ابتدع فتنة القول بخلق القرآن، وإنما تلك فتنة أحدثها عصره، واندفع المأمون بحكم العلل الاجتماعية والكونية إلى أن يكون مظهرها. وينطبق القياس نفسه على شعر أبي نواس في المجون، فالمحقق ـ عند طه حسين ـ ((أن أبا نواس لم يبتدع مذهبه ... ولم يتكلفه تكلفاً، وإنما عاش في عصر وبيئة كانا يضطر انه إلى أن يرى هذا الرأي وينهج هذا النهج)). إن الفرد ظاهرة اجتماعية. و ((إذن فليس من البحث القيم العلمي في شيء أن تجعل الفرد كل شيء وتمحو الجماعة التي أنشأته وكونته محواً. إنما السبيل أن تقدر الجماعة وأن تقدر الفرد، وأن تجتهد ما استطعت في تحديد الصلة بينهما، وفي تعيين ما لكليهما من أثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة).

إن هذه الصيغة التوفيقية تظل قائمة في كتابات طه حسين، وهي تعمل عملها لتبقى العلل الاجتماعية في موضع الصدارة، وتحول العلل الفردية إلى معلولات لها إلى حين. ولذلك، يقول طه حسين في ((قادة الفكر)) (1925).

(إن هذه الآداب والآراء على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية: أي أنها أثر من آثار الجماعة والبيئة أكثر منها أثراً من آثار الفرد الذي رآها وأذاعها).

ثم يعود طه حسين ليؤكد الأمر نفسه في ((خصام ونقد)) (1955) حيث يقول: "الشاعر والكاتب لا يستمد أدبه من شخصه وحده. ولو استطعت لقلت إنه لا يستمد شخصيته من شخصه وحده. وإنما أكثر فنه يستمد أكثر شخصيته من أشياء أخرى ليس له حيلة فيها وليس لطبيعته ومزاجه وفرديته فيها كل ما نظن من التأثير. وأكاد أقول مع القائلين إن الفرد نفسه ظاهرة اجتماعية. فهو لم يأت من لا شيء وإنما جاء من أسرته أولاً. ولم يكد يرى النور حتى تلقته الحياة الاجتماعية فصورته في صورتها وصاغته على مثالها وأخضعته لمؤثراتها التي لا تحصى،

فعنصر الفردية فيه ضئيل لا يكاد يحس إلا أن يمتاز هذا الفرد .وامتيازه نفسه يرد في كثير من الأحيان إلى الحياة الاجتماعية التي أنشأته".

وتبدو العلاقة بين الأدب وبقية الظواهر الثقافية . في سياق هذه الحتمية . علاقة وثيقة. إذ يعكس الأدب . كبقية الظواهر الثقافية . شيئاً خارجه. قد يكون هذا الشيء المنعكس هو الحياة المادية أو الحياة المعنوية. ولكن هناك . في كل الأحوال . صورة تنعكس عما هو خارج الظواهر الثقافية ذاتها. ولذلك، تتحدد لاستخدام تشبيه المرآة في وصف هذه الظواهر . بما فيها الأدب . وظيفته الدالة التي تتصل بطبيعة العلاقة بين ظواهر الثقافة المختلفة وما تمثله، أو تصوره.

ويبدو أن طه حسين اقترب من هذا الفهم أثناء دراسته في الجامعة المصرية (1910. **1914**) على يد مجموعة من المستشرقين. ويبدو أن لكاركو نالينو . تحديداً . أثراً بارزاً في هذا الجانب، إذ يقول طه حسين عن دروسه: "لأول مرة تعلمنا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذي ينتج فيه، لأنه إما أن يكون صدى من أصدائها،

وإما أن يكون دافعاً من دوافعها، فهو متصل بها على كل حال، وهو مصور لها على كل حال. ولا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التي سبقته فأثرت في إنشائه، والتي عاصرته فتأثرت به وأثرت فيه".

وإذا تركنا ((الجبر التاريخي)) الذي يقابلنا . بشكل مباشر . في ((تجديد ذكرى أبي العلاء)) إلى ((قادة الفكر))، وجدنا أن الفلسفة . مثل الأدب . مرآة تعكس المجتمع الذي أنتجها. لذلك، كانت فلسفة السوفسطائيين ((مرآة صادقة لحياة اجتماعية كانت تنكر كل شيء في نفسه، ولا تعترف إلا بشيء واحد هو المنفعة الفردية)). وكما كانت فلسفة سقراط وأفلاطون ((مرآة تمثل ((الحياة الاجتماعية في عصرهما، كانت فلسفة أرسطوطاليس ((مثلة لهذا العصر الذي عاش فيه تمثيلاً صحيحاً)).

وإذا قلنا كيف يمكن أن تكون فلسفة السوفسطائيين وفلسفة سقراط مرآة لحياة اجتماعية واحدة على الرغم من تعارضهما، أو تكون فلسفة أرسطو وأفلاطون تمثيلاً لحياة اجتماعية واحدة، على الرغم من اختلاف كل فلسفة عن غيرها،

ومن ثم عكسها لجوانب مغايرة عن الجوانب التي تعكسها الأخرى؟ قالت كتابات طه حسين إن القاعدة واحدة.

وإن كل فلسفة تمثل جانباً دون آخر من حياة اجتماعية واحدة، فالأمر أشبه بازدهار شعر الزهد وشعر المجون في القرن الثاني للهجرة. يعارض كلاهما الآخر، لكن كليهما ينشأ عن المصدر الموحد الذي نشأ عنه غيره. فالحياة الاجتماعية ليست قطاعاً واحداً، بل قطاعات متعددة، تنعكس بأشكال متعددة في ظواهر ثقافية متعددة. ولذلك، تظل القاعدة قائمة، ويظل المبدأ المحرك للانعكاس متمثلاً في الطبيعة التأسيسية لتشبيه المرآة. وليس من المصادفة ـ والأمر كذلك ـ أن يؤكد طه حسين أن ((رسائل إخوان الصفا)) تمثل الحياة العقلية لعصرها مثلما تعكس الحياة السياسية (فهي مرآة تنعكس فيها هذه الحياة السياسية انعكاساً مباشراً).

وما يقال عن الفلسفة، في عمومها، يقال عن التاريخ، فالتاريخ ليس عرضاً لمجموعة عشوائية من الأحداث تخضع للمصادفة، وإنما هو تعاقب حتمي لأحداث تترابط ترابطاً علياً. ولكن يمكن لأحداث التاريخ ـ في هذا السياق ـ أن تتحول لتصبح صوراً تتعاقب بتعاقب المجتمعات في علاقاتها المتباينة، فيغدو التاريخ ((مرآة للأمم)) نفهم منها ما خضعت له الأمم من ألوان النظم المختلفة، وما نتجت عنه هذه النظم من علل مختلفة.

ويشبه الدين التاريخ والفلسفة ـ في هذا السياق ـ فهو مرآة لحياة من يعتنقونه، صحيح أن الأديان لها رسالتها الإنسانية التي تتجاوز من أنزل عليهم الدين، لكن لها ـ مع ذلك ـ جوانب ترتبط بالمجتمع الذي أنزل فيه الدين من ناحية، وترتبط بتفسير المجتمعات لهذا الدين وممارسة شعائره من ناحية أخرى. فالدين ـ في النهاية ـ مرآة لحياة من يعتنقونه. ولذلك، كان ((الدين في لورد تجارة رابحة ولكنه في بريطانيا والإلزاس مرآة صادقة لقلوب مؤمنة خاشعة))، ولذلك كان القرآن الكريم ـ في جانب منه ـ ((مرآة الحياة الجاهلية))، بل ((أصدق مرآة للعصر الجاهلي)) فهو (أصدق تمثيلاً للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي).

وإذا تركنا الدين إلى بقية الظواهر واجهنا مبدأ العلية نفسه، بل يستمر المبدأ ليبرر اللغة التي تصبح ـ بدورها ـ عاكساً يعكس المجتمع من ناحية، والفرد من ناحية أخرى. ولذلك، كانت اللغة مظهراً من مظاهر التاريخ ((ومرآة لحياة الأمة))، فهي ((مرآة الأطوار المختلفة التي يتقلب فيها المتكلمون((، وتعني ((المتكلمون)) ـ في هذا السياق ـ الفرد والمجتمع، على السواء، مما يجعل اللغة ((مرآة حياتنا)) من ناحية، ومرآة لحياة الفرد وصورة صادقة له من ناحية أخرى. إن اللغة ((مرآة الحس والشعور، والعقل والقلب))، وهي تعكس صاحبها مثلما تعكس مواقفه، فإذا افترضنا ـ مثلاً ـ أن طه حسين مفكر يتخذ موقفاً وسطاً بين ما يسميه القديم والجديد، فلابد أن تكون لغته انعكاساً لهذا الموقف، لسبب يحدده طه حسين عندما يقول: "أرى أن لغتي يجب أن تكون مرآة صادقة لنفسي. ولن تكون لغتي مرآة صادقة لنفسي إذا كانت قديمة جداً أو حديثة جداً. وإنما هي مرآة صادقة لنفسي إذا كانت مثلي وسطاً بين القديم والحديث".

ويمتد الانعكاس الكامن وراء كل هذه المقارنات بالمرآة . عند طه حسين . ليشمل المؤسسات الاجتماعية نفسها، فتصبح وزارة المعارف . مثلاً . (مرآة صافية أو قل إنها مرآة كدرة للحياة السياسية في مصر، فلها في كل يوم رأى إذا تغير الوزير في كل يوم، أو إذا اقتضت ظروف السياسة أن يغير الوزير رأيه في مسألة من المسائل).

هكذا نجد أنفسنا . في مرات كثيرة . نواجه تشبيه المرآة يتكرر ملحاً على ارتباطه بهذه الحتمية التي تصل بين الظواهر والمؤسسات من ناحية وبين أشكال الحياة الاجتماعية من ناحية أخرى. ويقودنا التشبيه . في كل مرة . إلى علاقة بين طرفين، ثانيهما صورة تنعكس عن أولهما، فنرجع . دائماً . من الصورة إلى أصلها. وقد يكون هذا الأصل مادياً مرة أو فكرياً مرة أخرى، لكنه يرتبط . في كل المرات . بمجتمع يتكون من أفراد، وينطوي على نسيج من العلل، تنتج ظواهر هي معلولات لها ومرايا في الوقت نفسه.

وما ينطبق على الظواهر الثقافية ينطبق على الأدب، لأن الأدب واحد منها، يخضع لما تخضع له من قانون أساسي يجعلها انعكاساً لشكل أو أكثر من أشكال الحياة الاجتماعية. صحيح أن مصطلح الحياة غامض في هذا السياق، ولكنه مصطلح مرتبط بإطار التفكير العام عند طه حسين. وهو تفكير فيه من آثار الفكر الاشتراكي المثالي ما يجعله يرد الظواهر الثقافية إلى أساس آخر كامن وراءها، ولكنه يتوقف عند هذا الحد، فلا يفهم هذا الأساس على نحو محدد صارم، بل على نحو توفيقي يتمثل في توليفة متعددة العناصر، فيصبح الأدب . شأنه شأن التاريخ والفلسفة والدين واللغة والمؤسسات . مرآة تمثل مجموعة من الحقائق المستقلة، تصدر عن المجتمع، أي العلة النهائية في العملية الأدبية، وعن الفرد، المنتج المباشر لهذه العملية.

وإذا نظرنا إلى العملية الأدبية . من منظور المجتمع . قلنا . مع طه حسين . إن الأدب عموماً ((مرآة لعصره وبيئته))، والشعر خصوصاً ((مرآة لحياة ... البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الشاعر بوجه عام)).

يترتب على ذلك مبدأ مهم يرتبط بالدرس الأدبي ويتصل بالاستجابة التاريخية التي تحدثت عنها من قبل، وأعني مبدأ يؤكد معه طه حسين أننا إذا أردنا أن نتخذ لعصر من العصور)) صورة صادقة)) فلابد من الرجوع إلى الشعراء والكتاب لأنهم ((يمثلون الجماعة حقاً))، ولأن ((الحياة الأدبية هي الخلاصة النقية، وهي فيا لوقت نفسه المرآة لكل ما اضطربت به الأمة العربية في حياتها)). ولن يوجد شيء يصور الأمة العربية أصدق تصوير كالشعر العربي الذي هو ((مرآة لحياة هذه الأمة).

ويطرح طه حسين ـ عند هذا المستوى ـ تمييزاً مهما بين الصور التي تعكسها مرآة الأدب والتاريخ السياسي بمعناه الضيق. لقد أدى الخلط بين الاثنين، فيما يرى طه حسين، إلى إغفال المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية في الأدب، وتحول الأدب إلى مجرد تابع للسياسة بمعناها الضيق. وكأنه ظل من ظلال الخلفاء. والحق ـ فيما يرى طه حسين ـ أن هناك فرقاً بين المؤرخ السياسي والمؤرخ الأدبي. وإذا جاز للأول أن يؤقت قيام الدولة العباسية ـ مثلاً ـ بسنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة، فليت يصح للمؤرخ الأدبي أن يجعل هذه السنة مبدأ حياة جديدة للأدب،

لأن الظاهرة الأدبية تمتاز بأنها أشد ما تكون استعصاء على من يريد التدقيق في حصرها وتحديد وقتها، إذ إنها لا تظهر إلا بعد مقدمات عدة يتوافق بعضها مع البعض الآخر، ويغالب بعضها البعض الآخر. و ((من هذا التوافق والتغالب تنتج الظاهرة الأدبية ممثلة تلك المقدمات التي اشتركت في إظهارها. وتلك المقدمات نفسها نتائج علل أخرى. ومن الظاهر أن حركة الحياة الأدبية، وانتقالها من طور إلى طور، واستبدالها شكلاً بشكل، كل ذلك يجري خلف ستار لا تخترقه إلا أبصار الباحثين المجودين .بينما الحوادث السياسية تظهر واضحة لكل باحث، ولا يخفى إلا ما انبعثت عنه من العلل والأسباب).

ويرجع تعقد الظاهرة الأدبية ـ على هذا النحو ـ وتميزها عن الحوادث السياسية بمعناها الضيق، إلى أن الصور التي تمثلها مرآة الأدب لا تعكس الحوادث السياسية في ذاتها، أي لا تعكس موت خليفة وتولي آخر، أو سقوط دولة وقيام دولة أخرى فحسب، بل تعكس ـ بالإضافة إلى ذلك ـ العلل والأسباب التي تصنع هذه الحوادث.

ولذلك، لا توازي مرآة الأدب ـ في تغيرها ـ حركة هذه الحوادث في ذاتها بقدر ما توازي مراحل التحول الاجتماعي الأساسية التي تصنعها، والتي يمثل تعاقبها التاريخ الحقيقي للأمة العربية. ويعني ذلك أن مرآة الأدب لا ترتبط في وجودها أو عدم وجودها بأنظمة الحكم السياسي الفردي، كما أنها لا تتطابق ـ فيما تعكسه ـ مع موت خليفة وتولي آخر، وإنما تتطابق مع مراحل التحول الاجتماعي الأساسية.

وإذا كان الشعر العربي ـ في مجمل تاريخه ـ مرآة شاملة تعكس مراحل التحول الاجتماعي، فإنه في كل مرحلة من المراحل مرآة خاصة ـ أو مرايا خاصة ـ تعكس المرحلة المتميزة التي أنتجته، على الأقل في جانب أو أكثر من جوانبها. صحيح أننا لا يمكن أن نلتمس الجوانب الدينية والاقتصادية والاجتماعية للحياة الجاهلية من الشعر الجاهلي، بسبب ما في هذا الشعر من انتحال لا يجعل منه مرآة صافية صادقة تماماً للعصر الجاهلي، ولكن الموثق الصحيح من هذا الشعر يمكن أن يمثل لنا بعض جوانب هذا العصر، فيطلعنا على بعض صوره.

وما يقال عن الشعر الجاهلي يمكن أن يقال عن غيره من الشعر عبر مراحل التاريخ العربي. ولذلك، كان الغزل في بادية نجد، في القرن الأول للهجرة،(مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى مثلها الأعلى في الحب من جهة، ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تعمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى).

وإذا تركنا بادية نجد إلى مدن الحجاز قابلنا شعر عمر بن أبي ربيعة الذي كان ((مرآة للحياة الاجتماعية الحجازية في القرن الأول للهجرة))، و ((مرآة لنفس المرأة الحجازية وحياتها بوجه عام))، و ((مرآة لنفس عمر ومظهراً لشخصيته ومثالاً لقوة حسه ودقة شعوره)). وما يقال عن الشعر في القرن الأول للهجرة يمكن أ ن يقال عن غيره من القرون، فلم يتخذ الناس من أبي نواس، في القرن الثاني للهجرة، مثالاً يكلفون به أشد الكلف إلا لأن أبا نواس كان (مرآة للعصر الذي كان يعيش فيه، أو مرآة، إن شئت، للون من ألوان الحياة في العصر الذي كان يعيش فيه).

وما ينطبق على الشعر القديم ينطبق على الأدب الحديث عموماً. قد لا نجد مرآة صادقة للعصر في كثير من شعر حافظ وأضرابه من شعراء الإحياء، لأن هؤلاء الشعراء لم يكونوا يعيشون عصرهم ويصورونه في شعرهم، بل كانوا مقلدين للشعر القديم ((فليس لهم إلا فضل واحد هو فضل الإحياء))، ولكن (ليس من شك في أن حياتنا الحديثة قد وجدت من أدبنا الحديث مرآة صادقة تصورها أحسن التصوير وأدقه وأعظمه حظاً من إمتاع العقل وإرضاء الذوق وملاءمة الطبع).

ويمكن ـ في داخل المساحة الممتدة للأدب الحديث ـ الإشارة إلى الأدب البدوي الشعبي في الجزيرة العربية ((من حيث إنه مرآة صافية لحياة الأعراب في باديتهم))، ويمكن الحديث عن الشعر الصادق لحافظ إبراهيم من حيث هو ((مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه))، والحديث عن كتابات عبد العزيز البشري من حيث هي ((أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية في عصر الانتقال)). ويقال مثل ذلك عن مسرحيات عزيز أباظة،

خصوصاً ((شهريار)) التي نجد فيها ((مرآة صادقة لآلام الناس وآمالهم وحياتهم كلها ما ظهر منها وما بطن))، أو يقال عن مسرحية محمود المسعدي . ((السد)) . لأنها ((مرآة للبطولة التونسية في مقاومة الاستعمار الفرنسي).

وما يقال عن الأدب العربي يمكن أن يقال عن الآداب الغربية الحديثة، خصوصاً عندما يؤكد طه حسين إعجابه بقصص موليير . على سبيل المثال . لأن هذه القصص)) كانت مرآة صافية لحياة الناس وما يكون لهم من الأخلاق وما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال))، أو يؤكد إعجابه بالأدب الأمريكي لأنه ((مرآة رائعة لحياة ليست أقل منه روعة)). فهو (مرآة لهذا الشعب (الأمريكي) ولكل ما اكتنفه واختلف عليه من المصاعب والخطوب).

إن تشبيه المرآة، في كل هذه النصوص السابقة، مرتبط بهذه الحتمية الاجتماعية التي أشرت إليها في أول الفصل. ومن التبسيط المخل أن نقول إن هذه الحتمية هي التي أدت إلى استخدام التشبيه،

ومن التبسيط ـ أيضاً ـ أن نقول إن التشبيه هو الذي قاد إلى هذه الحتمية. إن كلاً منهما يفضي إلى الآخر، كما أن كليهما يعمل على تحديد الآخر وتأسيسه. ولذلك، يتكرر التشبيه، بوصفه عنصراً تأسيساً، ليحدد العلاقة التي تصل بين كل الظواهر الثقافية ـ بما فيها الأدب ـ وأشكال الحياة الاجتماعية المختلفة، فيؤكد صلة الأدب بأصل خارج عنه. على نحو يجعل من الأدب نفسه مرآة للمجتمع.

وبقدر ما يؤكد التشبيه ـ في هذا السياق ـ جانباً من طبيعة الدراسة الأدبية، عندما تقترن دلالته بنوع من الاستجابة التاريخية للأعمال الأدبية، يؤكد التشبيه جانباً من طبيعة الأدب نفسه، وأعني الجانب الذي يجعل الأدب عاكساً لحياة اجتماعية قائمة قبل إبداعه، فيرتبط الأدب بهذه الحياة ارتباط المعلول بعلته. هذا الارتباط العلي يؤدي ـ في النهاية ـ إلى نتيجة لازمة تتصل بتغير المعلول بتغير علته. وما دام الأدب ـ المرآة يعكس الحياة الاجتماعية، وما دامت الحياة الاجتماعية نفسها تتغير من عصر إلى عصر، فلابد أن يتغير الأدب يتغير هذه الحياة، لأن كل تغير في الأصل ينعكس في صورته،

ولذلك لا نواجه مرايا ثابتة في الأدب، بل مرايا متغيرة بتغير الحياة التي تعكسها .والفرق بين مرآة عمر بن أبي ربيعة ومرآة أبي نواس ـ من هذا المنظور ـ هو الفارق في الغزل الذي كان على حال في عصر فتحول إلى حال آخر في عصر مغاير .ولكن مهما كان التغير الحادث في مرايا الأدب بتغير موضوعها، فإن علاقة هذه المرايا بالأصل تظل ثابتة.

إن علاقة الانعكاس التي تربط بين الأدب والمجتمع ترجع إلى حقيقة مؤداها :))أن الأديب، مهما يكن أمره، كائن اجتماعي لا يستطيع أن ينفرد ولا أن يستقل بحياته الأدبية، ولا يستقيم له أمر إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس .فكان صدى لحياتهم، وكانوا صدى لإنتاجه، وكان مرآة لما يذيع فيهم من رأي وخاطر. وما يغذوهم من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها).

ولا شك أن هذه الحقيقة تنطوي على مفارقة لافتة: إن نتاج الأديب ـ من ناحية ـ صدى لحياة الناس فهو مرآة لهم. ولكن هؤلاء الناس يتحولون ـ من ناحية ثانية ـ ليصبحوا صدى لإنتاج الأديب عندما يتلقونه، فهم مرآة له.

ومعنى هذا أن مبدأ العلية الذي يحكم علاقة الأدب بالمجتمع مبدأ متحول، ينقلب فيه المعلول ليصبح علة بالدرجة نفسها التي تنقلب بها العلة لتصبح معلولاً. ولذلك، ويبدو صدى لحياة الناس، ويبدو الناس صدى لإنتاجه. وتشبيه الصدى . في هذا السياق . يقودنا إلى مجال صوتي، قد يختلف عن المجال البصري للمرآة. ولكن كلا المجالين يلتقيان جذرياً في علاقة العلة بالمعلول، تلك التي تحكم الصلة بين الصوت والصدى، مثلما تحكم الصلة بين الموضوع وصورته في المرآة، لنقل إن المجتمع هو الأصل الصوتي لما ينتج من صدى عند الأديب، ولكن سرعان ما يعود الأديب فيتحول إلى أصل صوتي لما يحدث من صدى في المجتمع. وإذا كان المجتمع، في الحالة الأولى، علة للصدى الناتج عند الأديب، فإن هذا المجتمع ينقلب فيصبح معلولاً في الحالة الثانية.

هذا الوضع المتميز للعلاقة بين الطرفين يقودنا إلى طبيعة العلاقة نفسها، وما تقوم عليه من مفارقة لافتة ذات دلالة، ذلك لأننا إزاء علاقة تقوم على التبادل، أشبه في وضعها بوضع المرايا المتقابلة، حيث تنعكس صور الأولى في الثانية، مثلما تنعكس صورة الثانية في الأولى،

لكن الانعكاس لا يتوقف عند مجرد التبادل المكاني، وإنما يمتد لينطوي على ما يلازمه من تبادل التأثر والتأثير. هذا الانعكاس المزدوج في تبادله، يكشف عن الطبيعة الاجتماعية للعملية الأدبية من حيث مصدرها، ومن حيث آثارها التي تحدثها في المجتمع .وبقدر ما تؤكد هذه الطبيعة أن الإنتاج الأدبي لا يمكن أن يحدث إلا بعد تأثر بالمجتمع، فإنها تؤكد أن هذا الإنتاج لا يمكن أن يتحقق إلا بعد تأثير في المجتمع.

ومن الممكن اختزال هذا الوضع المتبادل في فكرتين متوازيتين: أولاهما أن المجتمع يصنع الأديب الذي يصنع، بدوره، العمل الأدبي. وثانيتهما أن الأديب يصنع العمل الأدبي الذي يساهم، بدوره، في صنع المجتمع. ومحصلة الفكرتين هي هذه الصيغة التي تتضمن أن الأديب مصنوع وصانع، وعلة ومعلول. ولكن العلاقة بين الفكرتين، في هذا الوضع، علاقة تجاور وليست علاقة تركيب، وعلاقة التجاور تقوم على تعاقب في الزمان، فالمجتمع يصنع ـ أولاً ـ الأديب، على أساس من هذه الحتمية التي تلغي الفاعلية الإنسانية، غير مرة،

ثم يعود الأديب فيساهم ـ ثانياً ـ في صنع المجتمع، مما يؤكد الفاعلية الإنسانية، ويلغي الجبر الآلي في التاريخ. وإذا كان التجاور يكشف عن التوفيق، فإن التعاقب يكشف عن التناقض، فيكشف التناقض ـ بدوره ـ عن خلل في الصيغة، ما لم تعتمد منطقاً مخالفاً، يرفع التناقض بين الفكرتين، بعملية جدلية تحتويهما معاً في تركيب جديد.

ويتمثل إشكال الصيغة التوفيقية في هذا الوضع المتجاور المتعاقب الذي لا يفارقها. والحق أننا ـ على عكس ما تطرحه صيغة طه حسين ـ لسنا إزاء حالتين متعاقبتين في الزمان، بحيث يؤثر المجتمع، في الأولى، تأثيراً يلغى فاعلية الفرد الأديب، ثم يؤثر الفرد الأديب ـ في الثانية ـ تأثيراً يتضاءل أمامه المجتمع، وإنما نحن إزاء وضع واحد، تقوم العلاقة بين طرفيه على جدل متزامن، إن صح التعبير، وليس على مجاورة متعاقبة، ذلك لأن المجتمع يعبر عن نفسه في الأفراد وبالأفراد، والأفراد يختارون أنفسهم في مجتمعهم وعن طريقه في آن .أي أننا إزاء علاقة بين طرفين حقاً، ولكنها علاقة لا تتسم بالتعاقب، أو التجاور،

وإلا انطوت على تناقض لا يحل، وإنما علاقة تتسم بالآنية، وتقوم على جدل بين الطرفين (المجتمع ـ الأديب) بحيث يوجد الطرفان معاً في الوقت نفسه، ويتحولان معاً خلال الجدل، ولكن وجودهما وتحولهما لا يمكن إدراكه بفكر يجزئ الظاهرة الأدبية، حين يوفق بين تفسيراتها المتعددة، بل بفكر يفتش عن الكلية التركيبية لهذه الظاهرة، ويفسرها بمفهوم مبدؤه أن الكل، مهما كان، يختلف في طبيعته عن مجموع أجزائه، وأن الجزء لا يكتسب أبعاده إلا داخل الكل.

ولكن الإشكال الذي تطرحه صيغة طه حسين يمكن أن يُفَضّ بطريقة أخرى جزئية، وذلك عن طريق التعاقب الذي يلغي بعض العناصر السابقة في التجاور ليؤكد عناصر لاحقة، لا تمثل عائقاً في صياغة الفكر التوفيقي إن الفكر، هنا، يبدأ بالفكرة الأولى، وهي أن الفرد نتاج لحتمية اجتماعية، يصبح فيها الأدب انعكاساً، أي مرآة ساكنة للمجتمع، ثم يترك الفكر هذه الفكرة لينتقل إلى الثانية، وهي نقيضها، فيؤكد ـ بالتعاقب لا الجدل ـ أثر الفرد في المجتمع، ويثبت طبيعة أدبه كمرآة متحركة، يصبح المجتمع ذاته صدى لها، ولكي لا يمثل التناقض عقبة، يتغافل الفكر عن الفكرة الأولى، بل يحذفها، وهو يمضي إلى الثانية،

لا من حيث جدلها مع الأولى، بل من حيث مجاورتها، التي لا تمثل عقبة أمام التعاقب، وعندئذ يبدو وضع العلاقة المتبادلة بين المجتمع والأدب وضعاً تجميعياً، للجزء فيه علاقة مستقلة عن الأجزاء. ولا بأس لو أكد طه حسين مع الفكرة الثانية ما يعد متناقضاً مع ما أكده في الفكرة الأولى.

ومن اليسير . عندئذ . أن تُنسى الحتمية الاجتماعية، عن تأثير المجتمع في الفرد، ليحل محلها، في حركة التعاقب، دور الفرد الأديب في التأثير على المجتمع. ويزداد الأمر يسراً لو افترض طه حسين أن مطالعة المجتمع لصورته في المرآة التي تعكسه، والتي هي من صنعه، تؤثر فيه فتعيد صنعه، فهي . أولاً . صدى له، وهو . ثانياً . صدى لها، وبذلك ينحل إشكال وضع العلاقة من حيث الظاهر، لكن التناقض الكامن في الوضع نفسه لم يحل .

طه حسين واللغة العربية

طه حسين (1889 – 1973م) علم من أعلام فكرنا المعاصر عاش حياته متعلماً ومعلماً ومناضلاً وداعياً من دعاة الحرية والتقدم والتعليم والثقافة العريضة، اجتمعت في شخصيته صورة عصره ، كانت حياته الخاصة جهاداً ، والعامة نضالاً ، عاش بين كفر الطماعين والسوربون فإذا به وهو الحريص على إلا تضل خطاه لا يضل ولا يتعثر ، لأنه أمسك بزمام عقله في كل هذه الرحلة الشاقة ، دافع عن العربية دفاعاً كبيراً لأنها لغة القرآن الكريم اللغة العربية الفصحى ، لغة الأجيال القادمة ، وعنها قال المستشرق أ. فيشر: { لا اعرف لغة أغنى من العربية ولا أسلس قياداً ولا أرق حاشية}..

وتأسيساً على حقيقة اللغة العربية في أنها أداة من أدوات الحياة العامة وأنها كائن حي ، دعا طه حسين إلى أصلاح التعليم اللغوي ورفض كل دعوة لتغييرها

وإبدال حروفها بل بالعكس تمسك بها لأنها لغة القرآن الكريم ، جمع طه حسين بين ثقافات عميقة واسعة ومتعددة صبها في عقله الخصب والذي اتحد بها وصهرها في بوتقة أفكاره وطبعها بطابع عبقريته وشخصيته واحدث في عالم النقد ضجة أيقظت نياماً وأثار في الفكر العربي ثورات حررته من قيوده وجموده ورسمت له طريقاً جديداً ....

أما مصادر ثقافته فتعود إلى بيئته المصرية وتراثها العربي القديم إذ يعد إن حفظ القرآن الكريم وألفية أبن مالك وبعض أجزاء كتب الأدب والشعر انتقل إلى الأزهر الشريف فنهل منه علماً كثيراً ولكنه تمرد على طريقة تعليمه فانتقل إلى الجامعة المصرية ، بعدها كان للثقافة الفرنسية دور كبير في حياته فلم يتغير لأن القرآن الكريم كان له الفضل الأول في عدم تغيره وبقائه مسلماً مخلصاً لإسلامه مؤمناً حقيقياً ، ومن مصادر ثقافة طه حسين أيضا التراث الكلاسيكي اليوناني والروماني ، وعند عودته إلى الجامعة المصرية مدرساً لهذه المادة فتح باباً أمام كثير من تلاميذه للدخول في هذا العالم الواسع

محققين فيه دراسات وكتباً قيمة ، في أثناء ذلك لم يترك الاستعمار وعملاؤه العربية تسير في خطها المرسوم فقد تألبوا عليها وبدأت الدعوة إلى العامية تظهر وتأخذ طابعاً علمياً ، فوجدوا في لغتنا ضالتهم التهديمية بوسائل وأساليب عدة يقوم بها قسم من أبناء شعبنا العربي مع الأسف منفذين مخططات الاستعمار كما وصفهم الشاعر :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة	
	على المرء من وقع الحسام المهند

وتصدى للعدوة إلى العامية الشيخ إبراهيم اليازجي (1847 – 1906) وعبد العزيز البشري وعبد الوهاب عزام ومن تونس رد العابد المزالي على هذه الدعوة ورد أيضا من سوريا الدكتور اسعد أطلس على الدعوة المذكورة ومن فلسطين

الشاعر النشا شيبي ومن العراق محمود شيت خطاب والدكتور مصطفى جواد (1908 – 1969) ومحمد بهجة الأثري (ت 1992) والدكتور حسين علي محفوظ (ت 2009) ، كل هؤلاء ردوا ردا عنيفاً على مروجي الدعوة إلى استعمال العامية.....

أما طه حسين فكان له موقف واضح من اللغة العربية فعندما كان وزيراً للمعارف اصدر قراراً بتعيين احد المدرسين ، ومضت مدة من دون أن يتسلم هذا المدرس عمله فقدم للوزير شكوى يقول فيها : (أنني لم أتسلم عملي بسبب نقص مصوغات التعيين) وعندما تلي هذا الخطاب عليه واستمع إلى كلمة (مصوغات) أمر بصرف النظر عن تعيين هذا المدرس ، وكتبت إليه مراقبة اللغة العربية بالوزارة تقول (نرجو انتداب المدرسان فلان وفلان إلى مدارس كذا وكذا) فأمر الدكتور طه حسين بأن يؤشر على الخطاب بما يأتي (يعاد إلى مراقبة اللغة العربية أو مراقبة محو الأمية)....

هاتان الحادثتان تؤكدان حرص طه حسين وتمسكه باللغة العربية كي لا تفقد صلتها بالحياة ولكي تظل أيضا وافية للتعبير عما يجد في حياة المتكلمين بها ، كما حرص طه حسين على أن يكون التعليم للشعب إذ قال : (التعليم حق للشعب وحق الشعب في مجانية التعليم قد أصبح مكتسباً) وأشار أيضا إلى ضرورة العناية بتعليم العربية في التعليمين الابتدائي والثانوي)، وقال أيضا: (ويجب أن يتعلم الشعب إلى أقصى حدود التعليم) وعن موقفه من اللغة العربية يرى طه حسين { أننا لا نعلم اللغة العربية لأنها لغة الدين أو لغة القدماء فحسب بل نعلمها ونتعلمها لأنها لغتنا ولغة أجيالنا القادمة }..

واللغة التي يرى طه حسين ضرورة العناية بها هي اللغة العربية الفصحى لغة القرآن والحديث الشريف ، فيقف موقفاً حازماً ضد العامية ويقول : { ولعلي أن أكون قد وفقت في هذه المقاومة إلى حد بعيد وسأقاوم ذلك فيما بقى لي من الحياة وما وسعتني المقاومة لأني لا استطيع ا ن أتصور التفريط ولو كان يسيراً في هذا التراث العظيم الذي حفظته لنا اللغة العربية الفصحى ولأني لا أؤمن قط

ولن استطيع أن أؤمن بأن للغة العامية من الخصائص والمميزات ما يجعلها خليقة بأن تسمى لغة وإنما رأيتها وسأراها دائماً لهجة من اللجهات قد أدركها الفساد في كثير من أوضاعها وأشكالها وهي خليقة بأن تفنى في اللغة العربية الفصحى إذا نحن منحناها ما يجب لها من العناية وارتفعنا بالشعب عن طريق التعليم والتثقيف وهبطنا بها هي من طريق التسير والإصلاح إلى حيث يلتقيان في غير مشقة ولا جهد ولا فساد)...

وفي محاضرة ألقاها الدكتور طه حسين في مؤتمر المجامع العلمية العربية الذي أقيم في دمشق عام 1956 عنوانها (نحو ميسر .. وكتابة ميسرة) قال فيها :{ وإذا فرضنا التعليم على كل هذه الملايين فيجب أن نبتغي إلى هذا التعليم وسائله الصحيحة التي تنتهي بها إلينا حقاً، ويجب أن لا نكلف الكثرة الضخمة التي نعلمها الآن في مدارسنا ، يجب أن يكون التعليم يسيراً وان يكون قريباً وان يكون سائغاً ، لا تجد فيه الكثرة مشقة ولا عنفاً ولا نحتاج فيه إلى هذا العناء الثقيل ، الذي يفرض على أبنائنا فرضاً} ..

وفي المحاضرة نفسها قال الدكتور طه حسين :{ وبعد فأنا لا أدعوكم إلى هجر القديم مطلقاً وعسى أن أكون من اشد الناس محافظة على قديمنا العربي ولا سيما في الأدب واللغة ولكن لم لا يكون النحو القديم والكتابة القديمة والبلاغة القديمة وكل هذه العلوم العربية التي أنشئت في عصر غير هذا العصر الذي نعيش فيه ، لم لا يكون هذا كله متطوراً كما تطورت اللغة نحفظ قديمه لدرس المتخصصين في الجامعات وفي المعاهد ونتيح للملايين البائسة من الصبية والشباب أن يتعلموا تعلماً قريباً سهلاً ، عسى أن يتخرج من بينهم من يضيف إلى ثروة هذا القديم ويحسنه أكثر مما نحسنه نحن ويحيى هذا التراث القديم اكسر مما نحييه نحن ...

أثار الدكتور طه حسين

بأفكاره ومنهجه عاصفة كبرى في الحياة الأدبية والثقافية العربية.وكانت الميزة الأساسية لطه حسين هي منهجه القائم على الشك العلمي،والنظرة الموضوعية المجردة للتاريخ والأشخاص،بعيدا عن التقديس والتعظيم،أو الخرافة والأساطير،وعدم الاعتداد بأي مسلمات جاهزة تقيد حرية البحث والتفكير. تلك هي القيمة الجوهرية لطه حسين في نظري،بغض النظر عن الاتفاق والاختلاف معه في نتائج بحوثه ودراساته.

وفيما يلي نلقي أضواء سريعة على أبرز المعارك التي خاض طه حسين غمارها دفاعا عن آرائه ومواقفه..

مع مصطفى صادق الرافعي (1880-1937 م):

يعتبر الرافعي من أبرز أعلام المدرسة الكلاسيكية في الأدب العربي،وله أسلوب إنشائي متين،شديد التعمق في الصور البيانية من المجازات والاستعارات إلى حد التكلف والافتعال،وكان اصطدامه بطه حسين أمرا متوقعا،وقد قامت بين الطرفين سلسلة من المعارك الطويلة والقاسية نتوقف على أهم محطاتها بإيجاز:

في عام 1912م كتب طه حسين وهو لا يزال طالبا مقالا ينتقد فيه كتاب الرافعي"تاريخ الأدب العربي" ويشهد الله أنه لم يفهمه !،فأسرها الرافعي في نفسه. والطريف أن طه حسين قد عاد لاحقا في كتابه "في الشعر الجاهلي"ليثني على هذا الكتاب خير الثناء!

في أواخر أيام عام 1912م كتب الأديب حفني ناصف مادحا كتاب "حديث القمر "للرافعي،فكتب طه حسين مقالا قال فيه إن الرافعي ألح على حفني ناصف حتى يمدحه،فسارع الرافعي للرد والتكذيب..

في يوم 1913/1/5م نشر حافظ إبراهيم قصيدة في جريدة"الجريدة" يمدح فيها كتاب الرافعي"حديث القمر"،فكتب طه حسين مقالا بتاريخ 1913/1/7م بعنوان "حافظ إبراهيم وحديث القمر أمدح أم هجاء" قلب فيه معاني القصيدة حتى تكون ذما وقدحا في كتاب الرافعي،ورد الرافعي مرة أخرى واستمرت المعركة أياما.

وفي عام 1923م أصدر الرافعي كتابه "رسائل الأحزان" فاستقبله طه حسين بالنقد اللاذع الذي جاء فيه :"نظلم الأستاذ الرافعي إذا قلنا إنه لا يشق على نفسه في الكتابة والتأليف،بل أنت تنصفه إذا قلت إنه ينحت كتبه من صخر، ولكني لا أجد في هذه الجملة ما ينبغي لوصف المشقة !،ومالي لا أتبسط معه بعض الشئ فأقول إن كل جملة من جمل هذا الكتاب تبعث في نفسي شعورا قويا مؤلما بأن الكاتب يلدها ولادة،وهو يقاسي من هذه الولادة ما تقاسي الأم من آلام الوضع...".وثار الرافعي وكتب ردا عنيفا أجاب عليه طه حسين برد أعنف.

وفي عام 1926م أصدر طه حسين كتابه الشهير "في الشعر الجاهلي" وأثار الضجة الكبرى المعروفة،فوجد الرافعي الفرصة سانحة لتصفية الحساب مع طه حسين،حيث هاجمه بعنف بالغ مع سخرية وتهكم في سلسلة من المقالات زادت على العشرين جمعها بعد ذلك في كتابه المعروف"تحت راية القرآن."

وفي الحقيقة لم يكن الرافعي رحمه الله بالذي يجهل قدر طه حسين،رغم كل الخلاف،وقد قال عنه ذات مرة :"أما طه حسين فليس بالضعيف الذي تتوهمه،وهو في أشياء كثيرة حقيق بالإعجاب،كما هو في غيرها حقيق باللعنة"..

مع زكي مبارك (1891–1952م):

كان زكي مبارك تلميذا لطه حسين وسكرتيرا وزميلا له في التدريس الجامعي،وهو شخص صريح لا يعرف المجاملة،وأديب مشاغب كثير المعارك والمناوشات حتى لقب" الملاكم الأدبي"،وقد نال 3 شهادات دكتوراه فسمى نفسه"الدكاترة زكي مبارك!"..ولكن حدثت تطورات وخلافات أدبية بين الاثنين

بعد أن أصدر زكي مبارك كتابه"النثر الفني في القرن الرابع الهجري" ينتقد فيه المستشرقين وطه حسين... وقد تجاهل طه حسين هذا الكتاب واصفا له بقوله"كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب!"..وكان زكي مبارك يعمل بوظيفة مؤقتة بجامعة القاهرة كلية الآداب،فلما انتهى عقده رفض طه حسين تجديد العقد،فخرج زكي مبارك من الجامعة وعانى البطالة والفاقة،واتخذ الخلاف طابعا تصعيديا خطيرا يصفه مؤرخو الأدب ب"معركة لقمة العيش"..وقد شن زكي مبارك حملة ضارية ضد طه حسين امتلأت بالقسوة والتجريح بل والإسفاف، وهناك مقال شهير قال فيه :"لقد ظن طه حسين أنه انتزع اللقمة من يد أطفالي، فليعلم حضرته أن أطفالي لو جاعوا لشويت لهم طه حسين وأطعمتهم لحمه !،ولكنهم لن يجوعوا مادامت أرزاقهم بيد الله."..

ورغم كل ما جرى لم يتخل زكي مبارك عن حبه ووفائه لأستاذه،وكثيرا ما يصف نفسه بتلميذ طه حسين تفاخرا. وقد كتب في مذكراته تحت عنوان "عدوي طه حسين" قائلا": إنه عدو عزيز أي والله،فما أذكر أني عاديت إنسانا أحبه مثل الدكتور طه حسين،والعداوة والحب يجتمعان في القلب الواحد

وإن عجب من ذلك من لا يفقهون.." ثم يقول بعد ذلك :"طه حسين هذا يزعم فريق أنه ملحد، ويزعم آخرون أنه يدعو إلى الفسق والمجون، وأقسم بالله صادقا ما رأيت من هذا الرجل وقد صحبته إثني عشر عاما إلا القلب الطيب والأديب البارع والخلق المتين."

مع إبراهيم عبد القادر المازني (1890-1949م):

ذات مرة أعلن طه حسين أنه يشك في وجود شخصية" مجنون ليلى"، كون الرواة تضاربوا في أخباره وبالغوا وجاوزوا المعقول، فكتب المازني مقالا ساخر ا تهكميا بعنوان"طه ومجنون ليلى" أعاد نشره في كتابه"قبض الريح"،ومما جاء فيه إنه سيأتي زمان يشك فيه الباحثون في وجود طه حسين نفسه ! بسبب التضارب في أخباره وعدم التوفيق بينها..فإما أن يكون طه حسين أسما استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه، أو أن يكون هناك أناس كثيرون يتسمون طه حسين..الشيخ طه، طه أفندي حسين، الدكتور طه حسين!...

مع عباس محمود العقاد (1889-1964م):

كانت علاقة طه حسين بالعقاد قائمة على الصداقة والاحترام المتبادل وتحاشي الاصطدام،وكان المناخ الهادي والودي يخيم على كل ما دار بينهما من حوارات ومناقشات.

ومن الحوادث الطريفة التي شهدتها الحياة الأدبية عام 1934م ذلك الاحتفال المهيب الذي أقيم لمبايعة العقاد أميرا للشعراء -مثلما حدث مع احمد شوقي عام 1927م !- وكان طه حسين بعد انضمامه لحزب الوفد الذي ينتمي له العقاد أبرز المشاركين..وألقى كلمة ترحيبية حماسية جاء فيها :"..أنا سعيد جدا في أن أعلن رأيي في صراحة،وأن أقول إني لا أؤمن في هذا العصر بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد...إني أؤمن به وحده لأني أجد عند العقاد مالا أجد عند غيره من الشعراء،وأكبر العقاد وأؤمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر،لأنه يصور لي المثل الأعلى في الشعر..." إلى أن قال :"ضعوا لواء الشعر في يد العقاد، وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء،فقد رفعه لكم صاحبه".

وقد أثارت هذه المبايعة اعتراض أنصار شوقي وانتقادهم حتى قال احدهم "خدع الأعمى البصير حين سماه الأمير !". ومن الطريف أن طه حسين دأب في سنواته الأخيرة على إنكار مشاركته تلك ومحاولة التبرؤ منها وهيهات ! فإن كلمته موثقة ومنشورة في الصحف حينها.

وذات مرة سئل العقاد في حوار صحفي عن رأيه في مجموعة من الأدباء والمفكرين،ومنهم طه حسين الذي قال عنه ضمن ما قال :"إن نصيبه من مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية ليس بأوفى نصيب.." وسكت طه حسين وقتها، ولكن زكي مبارك انبرى للعقاد قائلا :"كيف يجوز لك أن تتهم الرجل في فهمه للشعر وهو الذي أسبغ عليك إمارة الشعر ؟"!

وبعدما مات العقاد أعلن طه حسين أنه لا يفهم كتابه عن عبقرية عمر !

تأثير طه حسين

فى الفن القصصي المعاصر

"لقد صدق الدكتور زكى نجيب محمود، عندما قال إن التاريخ سيقول عن السنين الخمسين التى توسطت القرن العشرين: لقد كان عصر طه حسين. فما أظن كاتبا، خلال هذه السنوات الخمسين، قد كتب شيئًا دون أن يهمس له فى صدره صوت يقول : ماذا عسى أن يكون وقع هذا عند طه حسين إذا قرأه؟ وهكذا، كان هو المعيار المستكن فى صدور الكاتبين، كأنه لهم فى حياتهم الأدبية ضمير يوجه ويشير".

هذا ما يقوله الناقد الدكتور محمد نجيب التلاوى فى كتابه "طه حسين والفن القصصي"، الذى أعادت دار كتب عربية نشره فى القاهرة بعد عشرين عاما من صدوره للمرة الأولى. ويقول د.محمد نجيب التلاوى مستطردًا فى كتابه:

"ها نحن . هنا . نجتزئ من إسهامات طه حسين، فى فنوننا الأدبية المعاصرة، ونقف مع مسيرته فى فن القصة العربية فى مصر، التى أثراها بإبداعاته الروائية والقصصية، وبنقداته ثم بترجماته.

ولعل أهم ما يجذب الباحث فى دور "طه حسين" فى مسيرة القصة المصرية، هو انقسام النقاد والدارسين للفن القصصي تجاه دور "طه حسين" ونتاجه القصصي، ومدى تأثيره على مسيرة القصة المصرية.. فبعض النقاد معارض، يرى أن "طه حسين" زج بنفسه، ولم يكن له الأثر بنتاجه القصصي، والباحث فى تاريخ الرواية المصرية لا يقف طويلاً عند "طه حسين".

وأبرز من مال إلى القول بضآلة دور "طه حسين" فى الرواية والقصة المصرية د. إسماعيل أدهم، وإبراهيم ناجي. وتبعهما فؤاد دوارة، فى القصة القصيرة، وكذلك د. سهير القلماوي. وترادفت آراؤهم فى أن طه حسين ليس قصاصا، باستثناء عمله الفني "الأيام"، وأنه ليس صاحب اتجاه فى فننا القصصي المعاصر، ولم تترك قصصه أثرا يذكر، وأن مؤرخ القصة العربية الحديثة لا يتوقف كثيرا عند قصصه، والقصاصون تأثروا "بعودة الروح" لتوفيق الحكيم، ولم يتأثروا "بدعاء الكروان".

بل إن بعض الباحثين، فيما يتصل بالرواية والقصة المصرية من جوانبها المختلفة، تجاهلوا إلى حد ما دور "طه حسين"، ولم يستشهد بنتاجه القصصي إلا ما جاء عفو الخاطر السردي، مثل "يحيى حقي" فى "فجر القصة"، ومثل "د. طه وادي" فى بحثه عن "صورة المرأة فى الرواية المعاصرة"، برغم أن طه حسين قدم أبطال قصصه نماذج نسائية مصرية متباينة "الزوجة – الأم – الابنة – الساقطة – الملتزمة"، واستغل المرأة لعرض قضايا المجتمع، من خلال مشكلاتها، على الرغم من شكوى بعض القصاصين فى ذلك الوقت، من أن المرأة المصرية قعيدة المنزل، عامل غير مساعد على إثراء وكتابة موضوعات قصصية. وحتى فى مجال القصة القصيرة، أيضًا، تجاهل الباحثون "طه حسين"، وكأنه شيء لا يستحق الذكر، وعلى سبيل المثال ذكر النساج . فى بحثه . الرواد، ولم يذكر طه حسين، حتى إنه أحصى مؤلفي القصة القصيرة، ومنهم من كتب قصة واحدة فقط مثل "قطعة الذهب – لمصطفى فهمي"، بينما لم يذكر شيئًا عن "طه حسين"، ومؤلفاته فى هذا المجال ".

وفى الجانب الآخر - كما يوضح د.محمد نجيب التلاوى - نرى البعض يشيد بدور "طه حسين" فى فن القصة المصرية، منهم على سبيل المثال لا الحصر إبراهيم المازني، د. يوسف نوفل، د. عبد المحسن بدر، ود. عبد الحميد إبراهيم الذى يقول : " لعلى لا أبالغ لو زعمت أن طه حسين قد خلق ليكون قصاصا، قبل أي شيء آخر "، والمازني الذي قال : " إن الدكتور طه حسين قصصي بارع، وأديب روائي من الطبقة الرفيعة ".

ويقول د.محمد نجيب التلاوى فى كتابه : " لعل هذا الاختلاف الواضح بين النقاد فى تقييمهم لدور وأعمال "طه حسين" القصصية، هو أحد الأسباب المهمة الدافعة للبحث فى هذا الموضوع، وهذا يضطر الباحث إلى البحث فى تاريخ الرواية والقصة المصرية قبل وأثناء وبعد "طه حسين"، لأن "طه حسين" ممتد، مع امتداد الرواية المصرية منذ طفولتها، فى بدايات هذا القرن، حتى استقرارها . الآن . كفرع من أهم الفروع الأدبية. وليست الموازنة للرواية والقصة المصرية قبل وبعد "طه حسين"، ومدى تطورها وتقدمها هي الدليل الدقيق، لتقييم أثر ودور طه حسين فى الرواية والقصة المصرية ؛

لأن طه حسين واحد من الرواد، وتطور الرواية بعد طه حسين جاء نتيجة جهود متضافرة، وعقول متفاعلة، أدت إلى تطور الرواية والقصة المصرية، وطه حسين واحد من بين المؤثرين فى هذا الطور، ويتضح ذلك من خلال دراسة ما أسهم به طه حسين من نتاج قصصي وروائي، ومن دراسات نقدية، وتقديمه لترجمات أفادت القصة المصرية ".

ويعتقد د.محمد نجيب التلاوى أن الوقوف مع تاريخ تطور الرواية والقصة المصرية من مكرور القول، حيث إنه سبق فى هذا المجال بأكثر من عمل علمي جامعي، أرخ لتطور أنواع الفن القصصي فى مصر، وعلى الرغم من ذلك، فالباحث يضطر إلى الوقوف فى إيجاز شديد مع تاريخ الفن القصصي فى مصر ؛ لأن الباحث يدرس طه حسين، وهو واحد من الرواد، قد امتد مع امتداد تطور الرواية والقصة المصرية فى عصرنا الحديث، بل لعل المراحل التى مرت بها الرواية والقصة المصرية، هي المراحل نفسها التى أسهم بها طه حسين تقريبا،

حيث قدم القصص التعليمي، وشارك فى الترجمة وتقديم القصص المترجمة، لكن من النوعية القيمة المفيدة، وكتب السيرة الذاتية، والرواية التاريخية، ثم الرواية الفنية، فضلاً عن قصصه القصيرة.

يشار إلى أن الناقد الدكتور محمد نجيب التلاوى عمل كمحاضر بالكلية العربية بولاية صكتو بنيجيريا فى الفترة من عام 1980 حتى عام 1982، وكرئيس قسم اللغة العربية بكلية البنات بغسو بنيجيريا فى الفترة من عام 1982حتى عام 1984، وكمدرس مساعد ثم كمدرس ثم كأستاذ ثم رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالمنيا، كما عمل أستاذًا مساعدَا بكلية التقنينية بالدمام بالسعودية فى الفترة من عام 1991 حتى عام 1992 ، وأستاذاً مساعدَا بقسم اللغة العربية بكلية الإنسانيات بجامعة قطر فى الفترة من عام 1992 حتى عام 1997، وأستاذًا زائرا بكلية الدراسات الإسلامية العليا بسراييفو بالبوسنة، عام 1996.

شغل د. ا لتلاوى كذلك منصب عميد كلية الآداب بجامعة المنيا فى عام 1999، وهو عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمي منذ عام 1991، ومستشار النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية بالسعودية فى الفترة من عام 1991 حتى عام 1992، ورائد اللجنة الثقافية بالكلية بالسعودية فى الفترة من عام 1991 حتى عام 1992، وعضو اتحاد الكتاب بمصر، واتحاد الكتاب العرب بدمشق، ورئيس لجنة البحوث بالأمانة العامة لأدباء مصر، ومن مؤلفاته: "قصص الخيال العلمي فى الأدب العربي"، "المنظور اليهودي للشعر العربي المعاصر"، "تحت الرواية: دراسة فى فنية الإبداع الروائي"، "فن التعبير"، "تطوير الشعر العربي الحديث"، "القصيدة التشكيلية"، "أدب الخيال العلمي"، "فن النقد الأدبي الحديث"، "الاتجاهات النقدية الحديثة والحداثية"، وغيرها.

المراجع والمصادر

- الخطاب الفكري والمنهج النقدي في أدب طه حسين د. خالد يونس خالد 2005.السويد .
- الحق الإسلامي في الاختلاف الفلسفي. د. طه عبد الرحمن. الأستاذ حسن السرات 2005 م
- حديث الأربعاء: د. طه حسين – ط8 [مصر، دار المعارف، د.ت]:49/3
- أدباء معاصرون: رجاء النقاش (كتاب الهلال فبراير 1971).
- سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية: أنور الجندي – ط2 [بيروت، دار الجيل ن 1985]، ص205 - 206
- في الأدب الجاهلي – ط2 [مصر، دار المعارف، 1927]، ص16

- مشروع د. طه حسين (مقال ضمن أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط1، 1985)، ص526
- دراسات في حضارة الإسلام: جب، ترجمة إحسان عباس – يوسف نجم – محمود زايد – ط2 [بيروت، دار العلم للملايين، 1979]، ص361
- خصائص الأدب العربي: أنور الجندي، ص296 – 270
- مستقبل الثقافة في مصر (المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، المجلد التاسع.
- مقال نشر في مجلة المنهل السعودية، العد535، المجلد58، العام [62] / سبتمبر – أكتوبر 1996م .

فهرس